نشيد الإنشاد

أمير رمسيس

نشيد الإنشاد / رواية

أمير رمسيس

الطبعة الأولى , ٢٠٠٩

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة , اش المعهد الديني , المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف:

ريهام السبحي

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/١٨٥٨

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٧٧- ٧

نشيد الإنشاد

رواية

أمير رمسيس

الطبعة الأولى

٢٠٠٩

OKTOB.NET

دار اكتب للنشر والتوزيع



تقديم

" نحن لا نشفى من ذاكرتنا و لهذا نحن نكتب ، و لهذا نحن نرسم ، و لهذا يموت بعضنا ايضاً "

و انا اكتب هذه الرواية .. تلاحقني مقولة أحلام مستغانمي في رائعتها ذاكرة الجسد .. أكتب بدافع اساسي و هو محاولة الشفاء من الذكريات .. كانت باريس تلك المدينة التي أدخلتني رحمها لتعيد ولادتي غريباً في كل مدن العالم .. ما بين الرحلات الفعلية و رحلات الخيال و الحكايات المعلقة بينها و بين القاهرة .. ولدت نشيد الإنشاد .. كان علي أن أضع مدينتي – و اقول مدينتي بحكم انها مصنوعة في خيالي و ليس إنتمائي لها – بين صفحات هذه الرواية ..

أعترف إن الكثير من تفاصيل الرواية قد تكون قد حدثت لي أو حدثت بالمقربة مني و لكن الأكثر منها من نسج الخيال .. إلا أنه بلا شك .. أنا أحمل داخلي الكثير من أسامة المغترب الأبدي والذي لا يؤمن بأي شيء يتجاوز الحياة اليومية والذي فقد القدرة على الدهشة كما أحمل بداخلي الكثير من الشيخ سلام الصوفي و دهشته للعالم ..

كانوا شخصاً واحداً أكبر من أن تحمله شخصية درامية واحدة .. شخصيتان إجتذبتهم دوامة المدينة ليهيموا فيها بحثاً عن أي مغزى لوجودهم (بإفتراض جدلاً أن لوجودنا في هذا الكون أي مغزى)

في شوارعها و طرقاتها و بين سكانها .. و بالتأكيد في عالم الأنثى فيها بما أن وعينا بلا شك يتشكل بشكل ما أو بآخر في قصص العشق

التي نحياها و التي ما تنفك تصلنا بجسد العالم لتفصلنا عنه من جديـــد كما يقول داريل ..

قد يتساءل الكثيرون عن الهدف من أن أكتب رواية بدلا من أن أودع هذه القصة في قلب فيلم بحكم مهنتي و انتمائي الأول للسينما كصانع أفلام .. إلا أنني أعترف أن للرواية عشق طفولي داخلـــي .. فكما غيرت مني أفلام كثيرة و جعلتني شخصاً مختلفاً .. كان للأدب نفس الاثر في حياتي .. فكما أصبحت شخصاً ذو إدراك حياتي مختلف مع أفلام شاهين و يسري نصر الله و فلليني و كيسلوفسكي .. كما تغير وعيي للعالم بروايات جارسيا ماركيز و كونديرا و موراكامي .. و لهذا فضّلت لهذه المرة أن أستسلم لغواية الكلمة .. و هي التجربة التي بطبيعة الحال نعرف أنها ليست غريبة علـــى الكـــثيرين الـــذين تأرجحوا بين العالمين عالم الصورة و الكلمة ..

كبول اوستر و بازوليني ..

أكره ان أطيل في الأحاديث المجانية .. و لكن باختصار ..

ها هي نشيد الإنشاد ..

التي أهديها لباريس .. مدينة السماء الرمادية ..

أمير رمسيس

" في البدء نسعى لأن نملأ فراغ ذواتنا بالحب ، إلا أننا سرعان ما نكتشف أن هذا الكائن الذي تخيلنا أنه سيصلنا بجسد العالم .. قد نجح في فصلنا عنه فصلا تاماً و نهائياً "

لورانس داريل

رباعية الإسكندرية ، بلتازار



الفصل الأول

إيماءة المدينة العاشقة

الشيخ سلاّم

يا نسيم الروح قولي للرشا .. لم يزدني الورد إلا عطشا.

الحلاج

نقطة تضئ بقوة .. أخرى تنطفئ .. وسط لوحة من النقاط المضيئة ..في قلب الأزرق اللامنتهي ..تتابع سريع جداً لـــدورة حياة مصغرة .. نجوم كثيرة جدا .. ألاف .. تشاغل منبـــهراً برؤية هذه الدورة المتلاحقة من النور و الظلام التي تتجــسدفي سماء الليل من نافذة الطائرة .. كما رأها الشيخ سلام للمــرة الأولى من هذا الإرتفاع .. إنبهر في البدء بهذا المشهد و أخـــذ يفكر في سر هذا الإنطفاء السريع للنجوم .. و بينمـــا كـــان يبحث عن تفسير أسطوري لهذا .. جاءته الإجابة العلمية مـــن العجوز السخيف الذي يجلس بجانبه و الذي لم يتوقـــف عـــن إسترقاق النظرات المشمئزة لملابسه — حسناً ، دعنا لا نظلمه كثيراً فهو لا يختلف عن الأغلبية من ركاب و المــضيفين بـــل ورجال أمن مطار القاهرة الذين كلما رؤوه ظنـــوه متوجهـــاً للحج وأرشدوه متطوعين إلى طائرة السعودية و تـــشاركوا في النظرات التي رفعوا فيها الحاجبين حين رد بأنه يبحـــث عـــن طائرة "باريز " كما نطقها — بغض النظر عن هذا كان جاره مبتسماً و يحدثه بلهجة العارف ببواطن الأمور ..

- لما نجمة كبيرة بتنور جنب أختها الــصغيرة .. بنبطـــل نشوف الصغيرة مع إنها بتفضل منورة

جنبها .. إحنا بقى بيتهيألنا إنها إنطفت .. سنة الحيـــاة يـــا مولانا ..

أزعجه هذا التفسير العلمي بالإضافة للهجة اللـــوم علـــى الجهل في لغة الجار .. و لكن هذا لم يمنع نوع من الـــسخرية المُرة في ذهنه من لفظ مولانا .. هو الذي لم يصل بعد للعقـــد الرابع من عمره ..

ولكنه بشكل ما إعتاد تلك الهالة التي تمنحها له ملابسه ..

كان الشيخ سلام من مواليد قرية صغيرة من قرى الدلتا .. لم يكن يعرف المدن الكبيرة إلا زائرا خائفا من سياراتها الكثيرة السريعة و ضجيجها الـــذي لا ينتـــهي و شـــبكات الطـــرق العنكبوتية ..

القاهرة و الاسكندرية عرفهما زائراً .. منـــشداً في الموالـــد وخاصة مولد عمرو بن الفارض الذي يعشقه.. و أيضاً بعـــض الإحتفالات الثقافية التي يتشدق فيها المثقفين بإجلالهم للـــشعر والمديح الصوفي.. كان عادة لا يميل إلى هـــذه الأمـــاكن بـــل ويشعر بالخجل والإرتباك من وجوده فيها بالرغم من إجـــلال الحضور له (وهو الأمر الذي كان يزيده إرتباكا ، خاصة حين تتقرب إليه نساء هذه الطبقة .. يجيب دائما أسئلتهم بالصمت وبإبتسامة حين إستعادها أمام المرآة وجدها في قمة السخافة).

منذ أن إكتشف أهله في طفولته صوته الشجي .. أصبح سلام أصغر منشد في قريته .. حفظ سريعا الكثير من الأشعار الصوفية .. و تغنى بها لسنين طويلة قبل أن يدرك معناها .. أو على الأقل المعنى الباطن لها .. في أيامه الأخيرة .. حين تجلس بجانبه و يحدثك عن ذكرياته دون أن ينظر لك .. بلغة عربية تخللتها لكنة المغتربين .. سيبتسم و يقول إن قصيدة "قلبي يحدثني" لم يدرك معناها إلا بعد أن عاش في" باري" بل إن الكشف الصوفي الكامل لم يحدث له إلا حين زار هذه المدينة التي تشهد بقايا نوراً روحياً كان – في يوم من الايام – متأججاً تفترسه بشراسة مظاهر المدنية الحديثة ..

" كان عليّ أن أذهب إليها .. مدينة الخطيئة الفاضلة و أن ألتقي ببياتريس .. كي أدرك معنى الطهر التام "

باريس !! أو باريز كما يدعوها الشيخ سلام ... مجرد الفكرة حين هاتفته في التليفون مسئولة المركز الفرنسي بالإقتراح .. أثارت الرعب داخله .. باريس .. دون أن يعرف كلمة واحدة بلغة أخرى غير العربية .. كانت تتحدث بإيقاع أسرع من فهمه بكثير .. حفلة و تسجيل سي دي و شهور إقامة في مدينة النور .. لم يعي كثيرا سوى أنها تطلب منه إستخراج باسبور و لم تتاح له فرصة للقبول أو للرفض بما أنها لم تسأله حتى عن رأيه كما لو كان بديهيا أنه لا أحد سيرفض

الذهاب إلى الجنة .. حسناً الكثير من الأوراق و السفارة الـتي جلس فيها و مندوب من المركز الثقافي يتحدث نيابة عنه بينما يلقي الموظف الجالس نظرة عليه من وقت لأخـر .. و هـاهو الآن .. على الطائرة متوجه إلى مدينة النور .. جالساً بجـوار عجوز متعجرف ينظر له شذراً ..في قلـب طـائر حديـدي ضخم .. راهباً السقوط على ارض لا يراهـا أو الإصـطدام بنجمة لم تنطفئ بإرادتها و إنما بسطوة النجمة المجاورة لهـا .. مجرد الفكرة جعلته يتطمئن على ربط حزام المقعد كما لو كان سيحميه من هذا الإرتطام ..

وهنا في قلب الطائرة .. و دون أن أدرك وجـوده خلفـي ببعض المقاعد .. كنت أنا أيضاً جالسا أتشاغل بقراءة كتـاب وكأس من النبيذ الفرنسي بطعم الوطن كما كنت أدعوه دائماً بما أن فرنسا كانت دائماً وطني الروحي ووطـن النبيـذ .. لم أدرك وجوده خلفي .. و لن أدرك وجوده في الكون قبل بضعة ساعات .. و لكن لا بد أن أعترف أن حكايتي لا يمكن سردها بدون حكايته :

الشيخ سلام ..

أسامة

- J arrive pas à le croire , mais Paris t'aime plus que ses propres habitants

- مش قادرة أصدق .. باريس بتحبك أكتر بكتير من سكانها الأصليين ..

كانت هذه الجملة دائما معلقة في ذهني .. كانت صديقتي الفرنسية لا تتوقف عن ترديدها كلما رأتني مع فتاة جميلة أو كلما إستطعت كأي مواطن يعرف خبايا مدينته الحصول على لفافة من الحشيش الجيد في وقت يعجز فيه جميع أصدقائنا الفرنسيون في الحصول على سيجارة واحدة تدخن و بالتحديد في مواسم الأعياد و الأجازات .. كانت موهبة طبيعية .. وجرأة خاصة في إجتياز حديقة السانت أوستاش ليلا لإحضار لزوم السهرة دون أن أهاب تحذيرات أصدقائي من خطر التعامل مع الجانكيز السود (**junkees** كما كانوا ينطقوها بلكنة فرنسية تضفي شئ من الكوميديا على الكلمة حين يمطون الياء ..

حملتني طائرات عديدة و رغبات عدة إلى مدينة الخطيئة باريس في أكثر من مناسبة.. و كنت بطبعي عاشقاً للخطيئة .. عرفت شوارعها و محطات المترو المتشابكة كالعنكبوت بشكل يكاد يدعو للفخر .. دعيت بكرم متناه إلى سرير العديد من جميلات المدينة دفئتني أحضانهم و نهودهن الصغيرة الحميمة ..

كانت مهنتي كمصور "فنان" (لم يأخذ أكثر من دستة صـــور في حياته يكاد يخجل من أن يريهم لأي متخصص) تتـــيح لي التحرك بشئ من الحرية للمهرجانات و إحتفاليـــات ثقافيـــة عديدة .. بل و نجحت في إقتناص دورة تدريبـــة علـــى فـــن التصوير دفعتني لسنة كاملة للإقامة في هذه المدينة التي يعمـــل واحد من كل خمسة أشخاص على الاقل فيها بالفن كما كان يبدو لي ..

محمولا برغبة في إعادة فتح الدفاتر القديمة و إعتـــصار ألام النوستالجيا حتى القطرة الأخيرة ..

كانت هذه الرحلة ..

نقاهة فنية بعد عدد من الأعمال السخيفة الـــتي تتـــيح لي الحصول على كم من المال يكفيني للتكاسل لفتـــرة طويلـــة .. إعلانات .. صور شخصية لممثلين أعرف من الوهلة الأولى إن وجوههم أبدا لن ترى طريقها للشاشة .. و لكن .. حـــسنا لا بد من أشكر التنازلات الفنية التي جعلتني هنا على هذه الطائرة في محاولة محمومة لإستعادة علاقة قديمة لم تستمر أكثـــر مـــن أسبوعين أو ثلاثة في إقامتي الأخيرة .. غادر كل منـــا جـــسد الأخر و سريره و لكنها أبدا لم تغادر ذاكرتي (بعيـــدا عـــن المبالغات العاطفية فانا لا أتذكر كم كانت العلاقات القديمـــة جميلة إلا في تلك المراحل التي أعاني فيها من الخواء العـــاطفي) وبما إني في مثل هذه المرحلة .. قررت الطيران على أجنحة من

الرغبة إلى باريس .. معشوقتي الأزلية .. باحثاً عن علاقة عابرة أو تجربة سريعة أو لقاء خاطف ..

بحثاً عن أي شئ .. أيا كان .. أي شئ ..

كانت العلاقة الأخيرة التي مررت بها أبعد ما يكون عن أن تسمى بعلاقة صحية .. بالرغم من كل العناء الذي تكبدته في إعتبارها كذلك .. كانت حنان من تلك النوعية التي تدعونفسها حين يعرفك بها أصدقاء مشتركون في بدء الأمر كمهتمة بالفنون ..دون أن تعي ما مجال عملها أو من أين تحصل على مرتب في بداية الشهر حتى تكاد تقتنع أن هناك وزارة للمهتمين بالفنون تقوم بإعالتهم حتى يهتموا بالفن ..

عرفتها بينما كنت أقوم بتصوير حفلة غناء صوفي للشيخ سلام الذي لم يشغلني كثيرا غناءه و لا إسمه حيث كان ذهني مشغولا بأمور أخرى في تلك اللحظة.. كنت أؤدي خدمة لصديقة تعد معرضاً عن الفنون الصوفية .. أخذت بعض الصور وخرجت لأدخن سيجارة في هدوء في ردهة المركز الثقافي حيث كان الشيخ ينشد اشعار الحلاج و إبن الفارض والقاعة مليئة بعشرات المثقفين من جنسيات مختلفة .. نوع من الإدعاء الثقافي كما كنت أدعوه .. وهناك .. قابلتها ..

خرجت من القاعة بتوتر وقلبت حقيبتها اليدوية الصنع الضخمة رأساً على عقب ..

جاءتني طالبة عود ثقاب و رفضت بشمم ولاعتي ..

- لا شكرا ..

نظرت لها في دهشة و هي تبتعد ..

بحثت ثانيا في حقيبتها الضخمة إلى أن وجدت الثقـــاب في أحد أركانها تنهدت بإرتياح

-الولاعة حل رخيص .. انا دقة قديمة .. باحب الكبريت

قالت تلك العبارة مبتسمة و بادلتها الإبتسام

في تلك الليلة ذاتها ..إنفتحت أبواب قلاعها لي .. احتويت جسدها في فراشي ..

امتلكت نهديها الوافرين و شعرها الأحمر الذي كان يشكل ضعفاً خاصاً إلي ..

تشاركنا الفراش .. مرة .. ثم مرات .. إنفصلنا ثم عدنا إلى بعض ..دون ان ندخل في فخ الإعترافات المجانية بالحـــب ..لم تعد لدي طاقة لذلك .. أو في طقوس القهـــوة الـــصباحية في مقاهي عديدة و حديثاً عن الثقافة يؤدي دائما إلى نفس الختام الذي وصلنا إليه .. و لكن شيئا ما في قلـــبي تعلـــق بـــسحر الـــصمت الـــذي يـــشوب علاقـــتي بتلـــك الفتـــاة .. تلذذنا بإيلام الاخر بعلاقات أخرى أعادتنا إلى ممارسة أكثـــر حميمية و عنف ..

إلى أن إنفجرت في وجهي تلك الليلة الأخيرة باكية .. بعد ممارسة جنسية لم تنظر لعيني خلالها و لو لمرة كمن يحـــاول أن

يختزن الحاضر في ذاكرته بتركيز شديد حتى انه ينسى أن يعيشه..

كانت تحاول أن تأخذ صورة فوتوغرافية في ذاكرتها للحظة.. لا يوجد من يمكنه إدراك هذا أفضل مني ..

- أنا مش كيس لب و مش عايزة أبقى تسلية .. كفاية بقى فن ..أنا عايزة علاقة عادية زي أي إتنين .. عايزة أحس إني ملك لحد ..كنت عايزاك مرة واحدة تقولي إنك بتحبني حتى و أنا عارفة إنه مش حقيقي .. و الأسوأ من ده كله إني مش عارفه حتى أكرهك.

وغادرت .. كانت تلك هي المرة الأخيرة التي رأيتها فيها..

و بالرغم من أني حاولت أن اقنع ذاتي أن العلاقة لم تعني لي شئ .. إلا إني إنسقت طواعية لشهوة النوستالجيا و الإفتقاد .. حتى تفاصيلها الصغيرة المؤرقة وهوسها بالنظافة الذي كان يقارب المرض أصبح من الذكريات المحببة إلى قلبي .. كانت تجبرني على تنظيف البيت قبل مجيئها حتى تفوح منه رائحة المطهر كأي مستشفى .. و بالرغم من كراهيتي لهذا الفعل إلا إني انخرطت بعد اختفائها في تنظيف المترل بشكل محموم على أمل أن تدق بابي في زيارة مفاجأة .. حتى غرقت ذكرياتي تماماً في عطر الديتول .. عطرها المفضل كما كانت تقول .. إلى ان بدأت في الخروج من المترل بحثاً عنها و هروبا من الرائحة ..

بعد عدة أسابيع يائسة من محاولات البحث عنها .. قادتني قدماي إلى فرع إير فرانس في ميدان طلعت حرب حيث حجزت تذكرتي .. لم أنس قبلها أن أقوم بمكالمة حميمية لتلك الفتاة الفرنسية التي أحببتها يوما .. نوع من إقترار النوستالجيا كما أسميه

و اليوم ها أنا على الطائرة .. أمام الشيخ سلام بثلاثة مقاعد

و لكن..

لم تلفت نظري إطلاقا تلك النجوم التي لا تتوقف عن الإضاءة و الإنطفاء في الخارج .



المطار

وقفت في الطابور الطويل ألعن القوانين الحديثة التي منعت التدخين في الأماكن المغلقة .. يهتم البشر عادة بالحفاظ على صحتهم .. فإنك حين يأتيك الموت على يد سلاح نووي أو في حرب أهلية حمقاء دفاعا عن أديان و مفاهيم لم يعد أي شخص حي يدرك المغزى وراء وجودها .. او على يد إرهابي أحمق من ذلك النوع الذي منذ أيام في المغرب قام بتفجير مقبرة يهودية فمات عشرون من المسلمين في المنطقة المحيطة و من البديهي أن اليهود المدفونين لم يزدادوا موتا ..

حين يأتيك الموت على يد الإنسانية التي تحتضر و تنتحر فأنت تريد أن تكون في كامل صحتك ..

قل لا للتدخين ..

كانت صديقتي تنتظرني بالخارج .. كنت أحب إحساس أن أحدا ما ينتظرني .. بقدر ما أكره أن يودعني أحد في المطار أو أن اذهب إلى المطار في تاكسي كالسياح الأغراب.. عند مغادرة باريس كنت أميل لان أغادر إلى المطار في المترو .. كأي فرنسي مسافر في رحلة عمل أو سياحة ..

رن جرس تليفوني الفرنسي ليجذب إنتباهي و يخرجني من تأملاتي المتحذلقة ..

- Salut ma belle

- salut mon beau prince

هكذا كنت أدعوها جميلتي و كانت تدعوني أميرها كما لو كنا نخرج لتونا من عالم كارتوني و كما لو كان منبه صـــغير بعيون مضحكة و مكنسة يقومون بالغناء في خلفيتنا

أخبرتها أنني بيني و بين الخروج حوالي ١٠ دقائق ..

- مش أكتر .. واحشني قوي ..

- مش ذنبي .. إبقى إتصرفي مع بن لادن ..

- نفسك تعمل إيه لما تخرج ؟

- ح أموت على كاس نبيذ .. بوردو .. زهقت من الخـــل المصري

أنهيت المكالمة سريعاً لأن دوري قد حان في الطابور .. نظر الضابط بسرعة إلى باسبوري و إلى الفيز السابقة ..

إبتسمت و شعرت بفخر خاص حين لم يطرح أي ســـؤال وسمعت الضربة الواثقة للختم على باسبوري ..

خرجت و هنا وجدته أمامي تائها .. توجه إلي ..

- لو سمحت ..أنا المفروض في حد مـــستنيني بـــس مـــش عارف ح يستناني فين ؟

كان يبدو على الشيخ سلام الإرتباك الواضح .. بملابسه الغريبة على المكان .. لم أكن في مزاج خاص لمساعدة الأخرين ولكن حسنا .. بما أن لم يبدو على من حولي أنهم في هذا المزاج أيضا ..

قررت أن اخدم إبن بلدي كما يقول أصحاب الشعارات المجانية ..

- هو أكيد ح يكون مستنيك بره .. إسمك إيه ؟

- سلام .. هو مندوب من المركز اللي ح أعمل فيه الحفلة بتاعتي . ..و المركز و السفارة همه اللي رتبوا كل حاجة ..

معلهش بس أصلها أول مرة أسافر بره مصر ..

ادركت في هذه اللحظة إني رأيته بل و قمت بتصويره من قبل و لكني لم أرد الدخول في مجاملات مجانية و إهدار الوقت فصديقتي تنتظرني بالخارج لبدء رحلة العلاج العاطفي..

مفيش أي مشكلة تعالى معايا يا مولانا ..

للمرة الثانية في هذا اليوم ولدت الكلمة إبتسامة ساخرة على وجه الشيخ سلام الذي تبعه مبتسماً .

كان يتلفت حوله منبهرا بهذه المدينة المضيئة التي يدعونها مطار .. مطاعم ..أسواق ... ركن جرائد

أهلا بك في مدينة النور ..

هذا ما تردد في ذهنه بينما هو يشعر بمزيج من نشوة الإنبهار وخوف الضآلة أمام هذا الكون الجديد الذي هو على أبوابه

ما أن تجاوزنا بوابة الجمارك التي عبرتها بلا إكتراث و إنفتح الباب الزجاجي حتى وجدت مواطنة فاتنة تحمل ملامح جميلات شمال أفريقيا تحمل لافتة مكتوب عليها بالفرنسية الشيخ سلام .. و لم تخطئ عيناها ملابسه فتوجهت إليه مباشرة مبتسمة .. تم التعارف سريعاً .. و لمحت تورد على وجنتيه ما أن طبعت الفتاة على وجنتيه قبلة التعارف المعهودة في أوروبا، و خف توتره حين بادلتني نفس القبلة حين قدمني لها

- *شكرا جزيلا يا أخ ..*

-*أسامة ..*

-*فرصة سعيدة أتمنى أشوفك في الحفلة*

أعطاني العنوان و الميعاد دون ان يبدو علي إهتماما خاصا .. و غادرت لاجد من يحتضني بعنف و يطبع قبلة على فمي .. ورددت الصاع صاعين بحكم العادة ..

- *وحشتيني بعنف شديد*

- و إنت كمان ..

انا استلفت عربية كاترين .. مفيش مترو النهارده ..

-هايل ..

-مين اللي لابس لبس غريب ده ؟

- منشد صوفي بيغني أشعار إبن الفارض .. عنده حفلة هنا ممكن نروح لو حبيتي

-Merveilleux , il a l' air trés sympa

- مدهش شكله ظريف جدا

لم يصدر مني أي رد موافقا أو معترضا .. فمن يعرفني جيدا يعرف إنني وجه بلا تعبير أيا كان ..

دافعا عربة الحقائب أمامي .. إحتضنتها من خصرها باليد الاخرى و توجهنا للباب . تلك .. كانت بياتريس .. لفحني تيار برد الشتاء الفرنسي ما ان لمست رصيف المدخل

كان المذيع في المذياع على قناة راديو فرانس يتحدث عن الهوية الثقافية و أزمة العرب المولودين أو المقيمين في باريس ويستضيف كاتبا سوريا يحيا في منفى إختياري عن بلده .. في برنامج يسمى هوية مزدوجة طالما إستمعت إليه .. شعرت إني لم أغادر باريس و أن شيئاً ما لم يتغير ..

ادرت مؤشر الراديو و أنا أتامل الشوراع في الطريق من المطار إلى شارع بومارشيه حيث تقيم بياتريس ..

- باريس متغيرتش كتير .. حاسس إني مسافرتش أصلاً

- بيتهيألك .. لما تخرج ح تلاقي الأسعار إرتفعت بجنون .. و الناس في الشوارع مكتئبة

المدينة فقدت كل بهجتها ..

هكذا كان الفرنسيين .. دائما ما يتذمرون .. و دائما ما يشكون .. إن لم تكن البطالة فهو إرتفاع الأسعار .. و إن لم يكن تقدم اليمين في الإنتخابات فيكون تقدم اليسار .. أو الطقس أو نظافة الشوارع أو العرب المقيمين دون أوراق والذين يزاحمون الفرنسيين في أعمالهم .. لا يوجد ما هو أسهل من إيجاد سبب للتذمر ..

أذكر في سهرة ليست ببعيدة .. كنت مع صديقة جزائرية لم ينس بلدها بعد رائحة دم المذابح التي يقوم بها الأصوليين

وكانت فقدت عددا من أفراد عائلتها في إحدى تلك المذابح ..
و لم تكن الإنفجارات الإرهابية غريبة على أنا الأخر في بلدي بالإضافة لتفشي الحجاب و الإسلام المودرن الذي يدعو إليـــه الدعاة الجدد بملابسهم الانيقة و الذين كسبوا أرضا للأصـــولية لم يكسبها الإرهابيين بكل ترســـانتهم و خاصـــة في وســـط الطبقات البرجوازية و الأغنياء الجدد .. و كان الحديث منصبا على فضيحة الأس أن سي أف أو شبكة المواصلات الفرنـــسية حين تأخر قطار ال**RER** لمدة عشر دقائق في أحد الخطوط ..

تبادلنا نظرات السخرية الممزوجة بغصة ألم .. و تـــشاغلنا بالنبيذ عن سلخ المجموعة بالتعليقات اللاذعة ..

- بريجيت سافرت غينيا مع منظمة لحقوق الإنسان هـــي و صاحبها .. و ناديا خرجت من باريس و عايشة في ليـــون .. جون مارك لسه عاطل ..

أخرجتني بياتريس من تأملاتي بأخبار الاصدقاء ..

- و بيير ؟ (حمل تساؤلي نبرة خبث لم أستطع منع نـــبرة الغيرة فيها .)

- سبنا بعض خلاص .. و المرة دي للأبد ..

نظرت إليها مندهشاً ..

كي نفهم قصة بير لا بد من أن أتلو قصة تعرفي ببياتريس حسناً .. فأنا أعشق الحواديت التي تضفي سحراً على تجاربي الشخصية و تجعل من حياتي أسطورة .. فعذراً لكم ..

بياتريس

ككل ليالي الشتاء في باريس .. كان الطقس البارد يجعـل المرء مضطراً لأن يحدد سلفاً إتجاهه إذا ما قرر الخـروج لـيلاً خاصة في منتصف الأسبوع حيث يميل الفرنسيون عادة لملازمة البيوت إلا في ما ندر .. و كان الكسل يحيط بدائرة معارفي .. و بشئ من العنـد الطفـولي قـررت الـترول للـشوارع و الإستكشاف كما كان يحلو لي دائماً .. إجتزت بوابة المـترل الذي كنت اقطن فيه تاركاً إياه مفتوحاً لجارتي العجوز الـتي إبتسمت لي الإبتسامة المجانية المعتادة مغمغمة بعبارات سـريعة عن أخلاقي و ندرة ذلك ما بين أبناء جيلي .. إجتزت شارع سان دوني من بدايته ماراً مروري اليومي بصف من العاهرات العواجيز الذين أصبح بعضهم مألوف لي بالوجـه .. حيـتني بعضهم بإبتسامة الإعتياد .. عبرت بالقرب من شوارع القاهرة و الإسكندرية و أبو قير بنفس النظرة الـساخرة .. إجتـزت الشارع المخصص للمـشاة و الملـئ بالمطـاعم و المحـلات المتخصصة في بيع الأفلام و الألعاب الجنسية المختلفـة (قـد يكون من الغريب بالنسبة لنا ان نتخيل ان في بعض بقاع العالم يبحث الناس عن الخروج من ملل طقوس الجـنس التقليـدي خاصة و نحن نحيا في ركن من العالم لازال غارق في كبـت لا

نهائي يجعل من تلك الممارسة التقليدية حلم بعيد المنال للكثير من الشباب، يبحث البعض عن الإكتشاف و البعض الاخر على طمس الإكتشافات الاولى من وعي البشرية ، هذا قدرنا)

سرعان ما وجدت نفسي أعبر ميدان شاتليه و نهر السين لكي أجد نفسي عند نافورة سان ميشيل التي إعتدت أن أتجول حولها كثيراً في ليالي الوحدة السياحية و الإكتشاف لوجه المدينة المجاني الأول .. و بعد عدة دورات في المكان و المرور بنوتردام و شارع سان جرمان و بعد يأس من إيجاد فيلم لطيف في إحدى دور عرض الحي اللاتيني المتعددة .. قذفني المطر إلى أحد المطاعم الأنيقة التي طالما سمعت عن تردد المشاهير عليه من رجال فن و سياسة .. أعطيت معطفي لفتاة فاتنة تقف على الباب و إصطحبني نادل أنيق ينظر لي مستغرباً شاباً في مرحلتي العمرية وحيدا يأتي في منتصف الأسبوع و أنقذتني ملامحي التي لا تفضح أصولي العربية من الكثير من التساؤلات و النظرات الأخرى ..

جلست على المائدة الصغيرة و طلبت سريعاً نصف لتر من النبيذ الأبيض الألزاسي الذي أكن له معزة خاصة .. و تسلّيت

بإرتشافه منتظرا الطعام الذي إخترته بعناية خاصة من المقبلات البحرية و بلح البحر و الأصداف التي يشتهر بها المكان ..

و كان بجانبي أحد الممثلين العجائز المشاهير الـــذي يبـــدو كمرتاد معتاد للمكان .. و بالرغم من أنه قـــام بالتمثيـــل في فيلمين من أفلامي المصرية المفضلة ليوسف شاهين و كـــذلك مع مخرجين أعشقهم كألفريد هيتشكوك .. إلا إنني لم أرغب بشكل خاص في لعب دور المعجب و تحيته .. خاصـــة مـــع ضحكاته العالية الفجة التي أغرقت المكان و سخريته اللاذعـــة بصوت عال من أحد الوزراء الفرنسيين اليمينيين الذي تـــورط في فضيحة مالية ..

أحببت روحه المرحة ..

حاولت التشاغل عنه و إن لم أستطع ألا أبتسم على تعليقاته اللاذعة و إنتبه هو لذلك و رفع كأسه في وجهـــي .. بادلتـــه الإبتسامة و رفع الكأس و جرعت النبيذ ثم عاودت الإلتفـــات لأحد فتاة المعاطف أمامي مرتبكة ..

– أنا أسفة .. بس الباسبور ده وقع من جيب جاكيت عندي و بيتهيألي إنه بتاعك أنا أسفة بس أنا فتحته وبصيت في الصورة ...

إبتسمت بشكر و تناولت الباسبور الضخم الذي يبدو كما لو كان يحتوي على تاريخ حياة المصريين كلهم و الذي طالما شكل شكله القبيح لي عنصر خجل في المطارات ..

-*أشكرك ..*

إعتقدت إن الحوار قد إنتهى بيننا و تمنيت العكس في داخلي ناظراً إلى عيونها الباسمة ..

و يبدو أن أبواب السماء كانت قد مفتوحة فوق باريس في هذا الوقت أو لعلها دائما مفتوحة فوق تلك المدينة خاصة لدعاء المحبين ..

وجدتها تستطرد في الحديث و تقول أنها لاحظت أني مصور من خانة المهنة و أنها هي شخصياً تدرس فن التصوير .. حدث كل شئ بسرعة و تبادلنا أرقام تليفونات كل منا و تواعدنا على لقاء في الغد في مقهى " **les deux magots** " المواجه للمطعم و إنصرفت لمزاولة عملها و رفع الممثل كأسه لي مرة أخرى و بيديه تظاهر بأنه يرفع قبعته لي .. بادلته إبتسامة و تحية محملة بأطنان من الخجل الشرقي اللاإرادي و الذي لم أفلح أبداً في تحطيمه ..

خرجت من المطعم سائراً تحت الامطار بسعادة أي جـين كيلي يرقص مبتلاً .. إجتـزت كـوبري"**le pont neuf**" راكضاً لأحتمي بمبني الساماريتين وصولاً لحي ريفولي .. و هنا لحسن الحظ توقف المطر سامحاً لي بإكمال طريقي دون اللجوء لحماية المترو الذي كان سيدفعني للتغيير ثلاثة مرات للوصـول إلى محطتي التي لا تبعد اكثر من نصف كيلومتراً أو تاكسي لا تسمح به ميزانيتي المتواضعة..

في اليوم التالي كان من المفترض أن نلتقي لنصف ساعة نظراً لإرتباط كل منا بمواعيد أخرى ..

إلتقينا و بدأ الحديث و بعد برهة نظر كل منا إلى سـاعته لنجد أننا قد تجاوزنا الخمس ساعات دون أن يـشعر أي منـا بمرور الوقت .. تحدثنا عن الصور و الفوتوغرافيا و الـسينما و الفن التشكيلي و الحياة و باريس و القاهرة و الوجود الإلهي و خرجنا من المكان بعد أن فات ميعاد عملها و تناسـيت أنـا مواعيد كثيرة كان على أن أذهب إليها ..

ودعنا بعض بقبلة سريعة على الخد ..و وعد بلقاء سريع و نظرة متواطئة تشي بكلام لم ينطقه أي منا و لكن كلا منا قـد سمعه من الأخر .. نظرة تفضح اكثر مما تخفي

بعد معرفتي بالشيخ سلام ، قد أسمي تلك النظـرة بإيماءة العاشق ..

"فإنما حدثتك لترى فإن رأيت فلا حديث"

كما قال النفري ..

لم أنم للحظة في الثلاثة أيام التالية .. كما قال أحد الكتاب: إن المدينة تغدو عالما حين يحب المرء أحد سكانها .. كنت أحتضن باريس طوال اليوم .. بل كانت تحتضني ..كما لو كنت أخشى أن انام لأستيقظ على الضفة الأخرى من العالم .. لأكتشف أن ما حدث لم يكن سوى حلم .. تحول قلبي لكاميرا فوتوغرافية تسجل الأحاسيس خوفاً من زوالها .. كنت أطوف معارض باريس .. أقضي اليوم في مركز بامبيدو .. اشاهد الأفلام القديمة في الحي اللاتيني في السينمات الصغيرة ..و في الليل أقابل أصدقائي حتى الواحدة حين تنتهي بياتريس من ورديتها لتفتح لي أبواباً جديدة من أبواب المدينة التي لم أعرفها من قبل .. مدينة الليل .. خلف صمت الليل و برد المدينة .. زرنا معاً بارات الجاز و حفلات الموسيقى التي تقام في أقبية تحت الأرض كانت في الماضي مخبأ من قصف النازيين لتصبح اليوم ملجأ لعشاق الليل و الموسيقى .. تفوح

منها رائحة رطوبة الحائط و السجائر (كنا في الفترة الذهبية التي سبقت منع تدخين السجائر في الأماكن المغلقة) و كان لموسيقى الجاز طعم دهشة الطفولة الأولى ... و كنا نخرج لنجوب الشوارع الخالية و نشرب النبيذ على ضفاف السين مع أصدقاء الصدفة الذين نلقاهم في البارات .. لا يعوقنا برد الشتاء و لا يخيفنا كمائن العسكر التي لم يعرفها قاموس تلك المدينة بعد ..

كان الخمر و الموسيقى وطناً لنا جميعاً .. كانت جنسيتنا الحب و الرغبة في الإكتشاف ..

جاء يوم الاجازة الأول .. و إتفقنا على أن نقضي اليوم من بدايته معاً ..

كان بداخلي هاجس خفي بأن هذا هو اليوم الذي سيلتقي فيه جسدانا .. و بعد مشاهدة فيلما فرنسياً أحبط أمالنا فيه .. خرجنا من مجمع السينمات في مركز الهال و سرنا كثيراً متجاوزين الشوارع الصغيرة الحميمية وصولا لميدان الباستيل و بدأنا في إحتساء النبيذ في أحد باراتنا المعتادة ... وبعد كئووس كثيرة .. باحت الكلمات بما فضحته العيون من قبل .. أعترفت لي بمشاعرها و قبل أن أرد الكلام الصاع صاعين .. أوقفت فمي بلمسة حانية من يدها .

و هنا أخبرتني عن بيير .. كانوا في علاقة إستمرت خمس سنوات دون أن يتوقفوا عن الدخول فيها أو الخروج منها .. كان ممثلا من مدينتها الأصلية تولوز و حاليا يمثل في عرض مسرحي هناك يمنعه من المجئ إلى باريس من فترة طويلة ... للوهلة الاولى كان الصمت ..

تذكرت فيلم جول و جيم لفرنسوا تريفو الذي كانت جان مورو ممزقة فيه بين حب إثنين ..

أدركت الان لماذا إجتذبني هذا الفيلم دائماً ..

خرجنا من البار و إلتقى جسدينا في حضن دافئ و قبلة طويلة في ميدان باستيل .. تلتها قبلات عديدة .. و حين عرضت أن نقضي الليلة سوياً .. صمتت لبرهة ثم رفضت ..

- مش لازم تحصل بيننا حاجة .. كأي إتنين ناضجين ممكن نتماسك ..

نظرت إلي نظرة مطولة .. و إبتسمت بمرارة ..

-انا شخصيا عارفة إني الليلة دي بالذات .. إستحالة أتماسك معاك ..(***Je te desire*** *) عايزاك*

كانت هذه الكلمة هي الجرس الذي أشعل رغبتي في البكاء .. كطفل صغير يبكي ضياع لعبته أو خسارته لمباراة مهمة .. تحاشياً لنظرات المارة .. القينا بنفسنا في سيارة أجرة

ونزلت بياتريس أمام منزلها بعد فترة تردد طويلة .. لم يلتقـــي جسدانا تلك الليلة ..

ولكن لم تطل مدة الإنتظار .. بعد تلك الليلة بأقـــل مـــن يومين .. أسلمت عيونها المبتسمة و فمهـــا لي .. في غـــرفتي الصغيرة التي تكاد تجاور جرس الكنيسة المجاورة .. مـــع قـــرع الأجراس كنت أحل رافعة نهديها الصغيرين لترتوي منهم يدي و فمي .. ثلاث دقات انكرنا قبلها بيير .. التهمت جسدها النحيل بفمي و استمعت برؤيتها تنتشي مغمضة العينين ..

تعقدت الأمور حين إعترفت لبيير بكل شئ و تقبل هو مـــا حدث و إلتقيته عدة مرات كان لنظراته الخالية من التعبير فيها تأثير السوط الذي يضرب بقسوة على إحساسي بالذنب ناحيته و إن كان هذا الذنب ليس كافياً لنتوقف أنا و هي .. لم يكن هناك شئ في العالم يمكن أن يوقفنا إلا إنتهاء فتـــرة إقـــامتي و عودتي الإضطرارية لمصر ..

غرقنا لوهلة في هذيان العلاقة طويلة المدى .. حتى حل الملل مكان الشوق ما بين المكالمات نصف المسموعة على الكومبيوتر وأخبار من مدن تفـــصلها الاف الأميـــال تفقـــدها المـــسافة حميميتها..

مكالمة يومية .. فكل يومين .. فأسبوعية .. تلاشت تدريجياً العلاقة لتصبح كصورة فوتوغرافية نراها عبر إطـــار زجـــاجي مترب ..

إتفقنا بعدها ببرهة على أن نحب بعضنا أقل كي نحب بعضنا بشكل أفضل ..

عادت مرة أخرى لبيير وعدت أنا إلى قلب مدينتي .. أختزن في صور الكاميرا وجوه المدينة و في ذاكرة جسدي وجوه نساء عديدة نجحوا في طرد صورها مؤقتاً من ذاكرتي ..

تلك كانت بياتريس

كان الطريق من مطار شارل ديجول طويلا مما جعل الشيخ سلام يشعر إنه في مدينة أخرى غير باريس .. و لكنه خشي أن يعلق للفتاة التي تقود بجانبه .. خديجة كما عرفت نفسها عليه

حاولت هي كسر الصمت .. تحدثت بعربية فصحى ركيكة ..كتم الشيخ سلام عدة ضحكات كادت أن تفلت منه

-أنا و أبي كنا دائما متحدثين عن زيارة مصر ، انا أعرف الكثير عن مصر و الفراعنة بل إنني قد قرأت أيضاً " عمارة يعقوبيان " .. أتمنى زيارتها .. هل هي قريبة من الأقصر ؟

إبتسم الشيخ سلام و غمغم بأنه لا يعرف مكان العمارة و لكنها في القاهرة التي تبعد عن الأقصر كثيراً .. لم يكن يعرف

أكثر فهو سمع قليلاً جداً عن هذه الرواية التي سمع أنها ستتحول لفيلم ضخم .. و أنه كلما تحدث مع فرنسي في أحد الحفلات عن مصر تحدث عن إنه يعرف كثيراً عن البلد لإنه قـد قـرأ الرواية .. لوهلة فكر أنه يجب أن يحاول قراءتها حـين يعـود للقاهرة ..

تمنى لو كفت الفتاة عن المجاملات المجانية التي يخجل بطبيعته عن الرد عليها .. و تمنى أيضاً أن يتفرغ فمها العـربي المكـتنز لتقبيله بدلا من التفوه بالجمل التي لا تقتل الوقت و إنما تزيـد الطريق طولاً .. عرف نساء كثيرون في حياته .. كان صـوته الشجي يدير رؤوس السيدات ليس فقط في الموالد و القرى بل أيضاً في محافل المجتمع الراقي و المراكز الثقافية .. كانت الشهوة لا تؤثر على تقواه بل تزيده من نور الكشف كما كان يقـول دائماً ..

حسناً ، يعترف أنه أحياناً ما كادت النساء تـدمر حياتـه خاصة تلك العجوز الإسكتلندية المختلة التي تعـيش في حـي الجمالية و ترتدي الجلباب البلدي منذ جائت في رحلة سياحية إستشراقية ووقعت في غرام " **la magie de l orient**" أو سحر الشرق كما تقول .. ظلت تطارده و تطوف خلفـه الموالـد راغبة في الزواج منه و ظلت تردد في كل مكان أنها من مريديه (حتى حين أكد لها أنه منشد و ليس ولي و أن ما تقول هـراء بلا معنى) ، كانت الطامة الكبرى حين زارته في المترل في قريته

وسط دهشة أهل القرية ووالده العجوز .. أفلت مـــن تلـــك الفضيحة بأعجوبة ..تعلم بعدها أن يـــضع حـــدوداً عديـــدة لشهوته ..

قطعت تأملاته خديجة مرة أخرى ..

- والدي جاء لباري من سنة ١٩٧٠ من الجزائر .. و تزوج والدتي من البلاد عن طريق عائلته بعد أن حصل علـــى أوراق الجنسية .. كان هذا أسهل بكثير في الماضي .. الان الكـــثيرون يظلون سنين طويلة يسعون بلا طائل .. أعرف مـــصري مـــن بلدكم يعيش هنا بدون أوراق من ١٥ عام.. تعلمت في المـــترل بشكل عربي إسلامي .. زرع والدي في أصولهم العربية و أنـــا فخورة بذلك .. ظل والدي يرغـــب دائمـــاً في أن نعـــود إلى البلاد.. ربما يأتي والدي للحفل سأعرفك عليه

إبتسم الشيخ و نظر لها مجاملاً بدون أي تعليق و أسند رأسه على النافذة متظاهراً بالنوم ..

جاء أسامة على ذهنه ..و لسبب ما شعر أنه ســـيراه مـــرة أخرى ..

و أن خلفه ستكون قصة ما ..

وصل الشيخ سلام إلى الفندق .. ودعته الفتـــاة بعـــد أن تركت رقم هاتفها ليحادثها حين يحتاج أي شئ .. و عرضت بكرم أن تتولى مرافقته لكي يشاهد معالم المدينـــة .. تنـــصل محرجاً بأنه متعب و أنه ربما يهاتفها في الغـــد كـــي يقومـــان بذلك .. قبلته مرة أخرى .. نظر حوله بتـــردد .. ثم صـــعد لغرفته .

عبر ناقذة الغرفة كان يرى برج إيفل الذي طالما سمع عنه و رأى صوره .. نظر إليه دون أن يدرك سر تعلق الناس بهذا الأثر الضئيل (هكذا كان يراه من النافذة) تغلب فضول المـــشاهدة عنده على الإنهاك و قرر أن يخرج بعـــد أن إرتـــدى ملابـــساً مختلفة .. قميص و بنطلون و معطف حاول أن يذوب بهـــم في وسط الأخرين .. لم يرغب في لفت الإنتباه إليه ..

لسعه البرد ما ان غادر بوابة الفندق .. سار عدة خطـــوات بتركيز شديد حتى لا يفقد طريق العودة .. ســـار طـــويلا في الشارع الفندق مسجلاً كل التفاصيل في ذاكرته ..

وصل إلى نهاية الشارع ليجد نفـــسه أمـــام جـــسر قـــديم حجري.. لفت نظره على طرف الجسر شاب و فتاة يقـــبلان بعضهم البعض بنهم .. نظر له الشاب متنمراً حين إستغرق في النظر إليه ..

حوّل نظره بسرعة و نظر للجسر .. دارت مليون فكرة في رأسه ..

كان شارع الفندق خلفه مباشرة و أمامه الجسر و طــرق مجهولة عديدة .على الجانب الأخر ، بدت المدينــة في كامــل زينتها على الضفة الأخرى من الجسر.. مبنى ضخم تضيئه لافتة مكتوب عليها **Samaritaine** و مبنى ضخم سيعرف لاحقاً أنه متحف اللوفر..باريس مضيئة عارية تتجمل لــه كــي يــسبر أغوارها.هل يخاطر بفقد طريق العودة .. هل يعبر الجسر نحــو مدينة النور و المجهــول .. دون أن يعــرف كلمــة واحــدة بالفرنسية.. مخاطراً بفقد خط الرجعة .. خطا خطــوة إلى أول الجسر .. ثم خطوتين .. كان يرتعد .. نظر للشارع خلفــه في خوف .. ونظر نظره أخرى للمدينة الباهية أمامــه ..ثم ، دار حول عقبيه وركض بسرعة متجهاً للفندق كمن يطارده قاتــل مجنون ..

صعد لغرفته .. و أطفأ النور تماما و جلس من بعيد ليشاهد نور المدينة ..

كان كالنجمة التي إنطفأت لتعترف في إجلال بأن النجــوم المحيطة تسطع أكثر ..

تسلى بمشاهدة الطريق بالأسفل و هو ينــشد في ذهنــه و إمتزجت صورة باريس تحت سماء الليل و أضواء المطاعم أمامه بصوته و هو ينشد :

أرى البعد لم يخطر سواكم على بالي و إن قرب الأخطار من جسدي البالي

فيا حبذا الأسقام في جلب طاعتي أوامر شوقي و عصيان عذالي

و يا ما ألذ الذل في عز وصالكم و إن عز ما أحلى تقطع أوصالي

استيقظ في صباح اليوم التالي على جرس تليفون الغرفة .. كان قد إستغرق في النوم جالساً على المقعد أمام النافذة .. أصيب بالفزع للسماء الرمادية و المباني الغريبة أمامه .. إستغرق دقائق كي يتذكرأنه في البلدة الأخرى .. على بعد ألاف الكيلومترات من قريته .. ركض نحو التليفون و رفع السماعة ليجدها خديجة ..

- *صباح الخير .. جاهز لجولة في مدينة النور؟*

ابتسم و تذّكر ليلة البارحة و مغامرته الفاشلة .. إرتدى ملابسه سريعاً و نزل ليجدها في البهو تنتظره ..أول ما لفت نظره إليها هو تلك الشفتان المكتنزتان مرة أخرى .. اللعنة على تلك الشفاه العربية .. قام كل منهم بالتحية المعتادة (او التي أصبحت معتادة لسلام) مصحوبة بقبلة على الخد .. تناولوا إفطار سريع في مقهى مجاور للفندق ثم طافت به أرجاء المدينة كلها بالسيارة مع وقفات عدة أمام الأماكن الشهيرة .. إبتسم حين عبر الجسر دون مهابة في ضوء النهار و برفقة دليل .. أخذت خديجة عدة صور معه بوعد أن ترسلها له لاحقاً إلى

مصر .. كان يرغب بشدة في صعود برج إيفل كي يرى المدينة من العلو .. يرغب في التحليق فوقها ..

أحبط حين وجد طابوراً من السياح أمامه ينذر بساعات عديدة قبل أن يستطيع الصعود .. كان أمامه ٣ ساعات على ميعاد ذهابه للمسرح ..

- أمامنا على الأقل ساعتين .. و لكن لا تقلق .. باريس مدينة ليس بها الكثير من المباني المرتفعة ..سأصحبك الأن إلى مونمارتر و من أمام كنيسة ساكركير سترى باريس كلها .. يكفى عادة أن تكون في الدورالسادس أو السابع من بناية حتى ترى المدينة ..

إبتسم .. لم يكن في باله الأن أن يرى المدينة بقدر ما يرغب في أن تراه المدينة ..

ذهبوا إلى مونمارتر و صعدوا أمام الكنيسة ومن هنا .. تبدت المدينة كلها أمامه .. بالقرب منه كان هناك عازف هارب يعزف مقطوعة كلاسيكية و يضع أمامه كوباً بلاستيكياً يضع فيه المارة قطعاً معدنية .. كانت موسيقاه تضفي لمحة رومانسية على المدينة أمامه .. ود أن يظل هنا لفترة طويلة .. يتأمل و يسمح للمدينة أن تتأمله .. و لكن خديجة قطعت تأملاته ..

- لابد من التحرك .. سنتناول الغذاء في مقهى قريب من المسرح ثم نتوجه إليه رأساً .. سنعود في مرة أخرى

نعم لا بد من العودة .. لا يدري لم إنتابه هذا الشعور ..

مرت أيام عديدة ، إزدادت معرفة الشيخ سلام بالمدينة مع توالي بروفات الحفل الذي إقترب ميعاده ..عبر الجسر مرات مع خديجة .. ثم مرات أخرى وحيداً .. إكتسب المعرفة الأساسية للشوارع التي تمكنه من السير من الفندق إلى الأماكن المجاورة كسان ميشيل أو شاتليه .. عرف المدينة و عرفته ..

زار معهد العالم العربي و فوجئ بكم شرائط الغناء الصوفي في مكتبته .. كون صداقات سريعة مع أصحاب مطاعم عرب ألف إليهم حول الفندق و قاعة البروفات .. لم يفلح في النيل من شفاه خديجة و لكنه لم يشعر أن الباب مغلقاً .. كانت تتأمله في البروفات بإعجاب شديد ..

خاصة حين يشدو بقصيدة " إحفظ فؤادك "التي طلبت منه يوم أن يكتب كلماتها كاملة لها و أن يساعدها في حفظها .. زارته اليوم التالي في الفندق و جلسا معاً في أحد المقاهي لساعات يساعدها على حفظها .. كان يحتسي الشاي بينما هي تحتسي النبيذ منتشية بنشوة القصيدة .. لن ينسى أنها في هذا اليوم حين ودعته .. لامست قبلتها شفتيه .. إنها الإيماءة .. إيماءة الوصال المرتجى ..

هكذا حدثته نفسه و هو يتلمس طعم شفاهها على طرف شفتيه ..

كان لعودته إلى بار الأريا في باستيل مذاق الإنتصار ..

ليالي عديدة قضاها في هذا البار و ذكريات كثيرة من يوم ميدان الباستيل المشهود بينه و بين بياتريس .. ذكريات عديدة و صداقات ..أصبح إدوارد صاحب المكان اللبناني الاصل من أعز أصدقائه في المدينة و طالما وصف المكان لكل من يزور المدينة من أصدقائه ..كما أن لقاءات كثيرة جمعته بصداقات و تجارب غنية هناك .. كان يفتخر بهذا المكان ..

ما أن دخلت إلى المكان حتى وجدت إدوارد يستقبلني على الباب بحضن و صرخة سعيدة .. كما تسارعت كل الفتيات اللاتي يعملن في البار للترحيب بي .. دخلت بياتريس و هي تحتضن إدوارد بدورها .. دون ان يسألنا أحد .. بدأ إدوارد في إعداد كوبين من الموخيتو (خليط الروم و الليمون و النعناع) مشروبي المفضل .. بدأنا في الثرثرة قليلاً عن أخبار الحياة و العمل و العائلة..

بدأت بياتريس أن تحكي لي ما حدث بينها و بين بيير

- من بعد اللي حصل بيننا مع بعض .. عمر الحاجات ما رجعت زي ما كانت مع بيير .. إحنا أصلا فيه حاجة كبيرة بيننا كانت ماتت من قبل كده بكتير .. كنا عايشين على التعود ..أوقات كده .. لازم تبص على اللي بتعمله من بعيد

علشان تعرف إنه أغلى حاجة في الـدنيا .. و زي مـا إنـت بتقول .. أوقات لازم نتعلم نحب أقل علشان نحب أحسن

كانت تلك إحدى عبارات الأفلام التي أحب ترديدها دائماً وإن كنت قد نسيت لأي فيلم هي تنتمي .. لم تكن حكاية بير تعنيني بقدر النتيجة .. أنه أصبح خارج الصورة .. تبادل الجميع نخب رجوعي إلى باريس .. ثم رفع إدوارد نخب أجمل ثنائي من مرتادي المكان .. أنا و بياتريس..

و كالعادة بعد أن أصبح الزبائن الموجودين من مرتادي المكان المعتادين .. وضع ادوارد أغاني فيروز التي كنت أهديها له دائما و رفع صوت الموسيقى حتى كادت السماعات تنفجر

و تمايلنا على ألحان فيروز و تمايلت المدينة على إيقاعنا حتى بوادر الفجر ..

إنسابت أغنية " بيقولوا صغير وطني " في المكان ..

إنحنت بياتريس على أذني .. و سألتني

- تفتكر ليه إحنا لحد النهارده علاقتنا ما خلصتش ..

إبتسمت مفكراً

- *علاقتنا مش ح تخلص أبدا لإنها عمرها ما إبتدت و مش ح تبدأ ..*

إحنا دايما عايشين **entre chien et loup** (الكلمة الفرنسية التي تعني لحظة الغسق ما بين الليل و النهار)..

قبلت خدي برقة و مسكت يدي دافعة بي إلى وسط الدائرة حيث رقصت بإستخدام وشاحي الملون (كانت هـذه حيلـة دائمة تبهر من أمامي و أتغلب بها على ضـعفي في السـرقص) جذبتها بالوشاح ليتلامس جسدانا في رقصة راغبة .. نتلاصق أحيانا ثم نلعب لعبة الإبتعاد ..

كنت ثملاً بالخمر و الذكريات.. كانت الليلة تبدو كنسخة من الماضي تتكرر في حلم .. أدى هذا الشعور إلى نزعة مـن الكآبة إجتاحتني فجأة ..

شعرت لوهلة إني أرى مثلها في عيون بياتريس ...

و كان إدوارد كذلك في نفس الحالة .. هل يفهم ما نشعر به؟ أم يبكي من الحنين بسبب أغاني فيروز التي تذكره وطنـاً بعيد لا يذكر شوارعه؟

أم يرى مستقبلاً لا أراه أمامي لقصتي انـا و بيـاتريس .. ويأسف لما يراه ..

خرجنا من البار و الشوارع فارغة .. كانت باريس هادئـة ليلاً كعادة وسط الأسبوع ..

كنت لازلت أدندن بكلمات اغاني السـهرة و بيـاتريس تدندن ألحاناً لا علاقة لها بالأغاني و لكن بشكل ما كان هـذا التضاد يؤدي إلى موسيقى جديدة .. حين عبرنا الميدان .. نظر

كل منا للأخر متذكراً .. و لم أتمالك رغبتي في أن أقبلـــها في نفس الميدان الذي شهد البداية .. جذبتها نحوي و طبعت قبلة حانية على شفتيها .. إزدادت شفتاي جرأة بعـــدها لتبـــدأ في إلتهام كل ما تلمسه في طريقها من شفتيها .. لذقنها المـــدبب وصولا لهذا العنق الرقيق الذي طالما طاردني و أنا أقبل فتيـــات أخريات .. دخلت تماما في أحـــضاني كعـــصفور يختبـــئ في القفص .. بإشارة أوقفت تاكسي كان كلانا يعرف هذه المرة إلى أين يتجه دون تردد ..

ما أن تجاوزنا باب الشقة حتى إنغمسنا في قبلـــة محمومـــة وبدأنا في خلع ملابسنا من الباب دون ان نطيق صبراً للوصول إلى غرفة النوم عبر الصالة الصغيرة .. لم يخرجنا مـــن الطقـــس صوت هبوط المصعد الذي يتردد في الشقة بعنف كعادة المباني الباريسية القديمة التي تفضح صوت كل شئ ..

خطوات السلالم .. المصعد .. خطوات الجيران .. في هذه اللحظة بخلاف العادة لم أفزع ..ربما لأني للمرة الاولى كنـــت أمارس الحب مع بياتريس دون هاجس بأنها ملكاً لأخر .. دون أن أعي أنها في هذه اللحظة تحديداً كانت على وشك أن تصبح ملكاً لأخر للأبد .. أضاءت الأبـــاجورة الـــصغيرة البرتقاليـــة الخشبية التي أهديتها لها في إحدى سفرياتي و التي كان عادة ما كان بيير يتضايق لوجودها أكثر من وجودي شخصياً ..

قبلتني في المنطقة الصغيرة أسفل أذني و التي تعي تماماً أنها كعب أخيل الخاص بي .. كان لطقس خلع الملابس إيقاعا مستفزا نظراً للبرد الباريسي في الخارج .. حسنا ربما يضفي الشتاء رومانسية خاصة مع المطر و الثلج حين تسير مع من تحب أو تجلس في مقهى تنظر للمطر و هو ينهمر على زجاجه .. و لكن لحظة إلتحام الجسد الأولى و لحظات خلع الملابس الكثيرة عادة ما يكون لها القدرة على تجريد اللحظة من أي عاطفة ..فكر في كم الملابس التي ستخلعها من عليك و من على جسد الأخر .. طقس قادر على تحويل اكثر اللحظات إغواء إلى الكوميديا الصرفة .. و لكن لحسن الحظ ساعد كم الكحل في دمائنا على تجاوز برودة اللحظة و سرعان ما كنا عاريين نتعرف كل على جسد الاخر بعد شوق طويل على كنبة صغيرة موجودة بالصالة على الضوء البرتقالي للأباجورة ..

بدأت كعادتي في تذوق جسدها من اعلى لأسفل .. للمرة الاولى لم يكن للحلمتين الرقيقتين اللذان يتصدران ثدييها الضئيلين الطعم المالح و الرائحة شديدة الأنثوية المعتادة في ذاكرته .. تلك الرائحة التي دائما ما كنت لا اجد لها سوى تسمية واحدة : رائحة الأنثى .. بالرغم من أنها لم تكن شيئاً موجوداً إلا لدى ندرة ممن عرفهتم .. ربما كانت بها شئ من رحيق أول فتاة في حياتي .. لم يتكرر إلا مع قليلات ..

هذه المرة لم يشعر بذلك الطعم أو تلك الرائحة في فمـــه .. وبالرغم من التساؤل الذي لم يشغله عـــن الممارســـة .. بـــل وحتى حين إنتهيا من الممارسة و ألقت بجسدها العاري علـــى صدره وإنشغلت بلف سيجارة من الحشيش .. إعتصر ذاكرته محاولاً التعرف على تلك الرائحة ..

لم يعرفها حتى و هو يستنشق نفسا من السيجارة ..

كانت رائحة و طعم الممارسة الأخيرة هي التي تفوح منها ..

أو المرحلة الأخيرة كما إعتادت ان تقسم علاقتهم لمراحل ..

قد تستمر لأيام أو لأسابيع و لكنها كانت مرات الوداع ..

أراد أن يخرج الكاميرا ليصور جسدها العاري و لكن خموله إنتصر وأغمض عينيه تدريجياً دون أن يكلـــف نفـــسه عنـــاء الذهاب إلى غرفة النوم بل إكتفى بالإعتـــدال علـــى الكنبـــة وإحتواء بياتريس في حضنه ..

كانت رائحة القهوة هي أول ما أيقظني في الصباح تلتـــها لفحة من البرد من النافذة نصف المفتوحـــة بتثاقـــل نهـــضت لإرتداء ملابسي بينما دخلت بياتريس الصالة بقـــدحين مـــن القهوة . أعشق رائحة قهوة الصباح .. تشكل مع لسعة البرد و خواء معدتي نوع من الحنين لذكريات ربما لم أعشها أبداً ..

ذكريات تعيش في منطقة من خيالي .. قبلتني بياتريس قبلـــة حانية على وجنتي بينما تشممت قدحي بإستمتاع ..

- *هي حفلة صاحبك إمتى ؟ تعالى نحضرها ..*

- *كمان أسبوع .. و هو مش صاحبي .. انـــا قابلتـــه في المطار .. عموما ماعنديش مانع نروح ..*

- *فيه معرض فوتوغرافيا حلو قـــوي في بوبـــورج تيجـــي نروح؟*

بالرغم من عدم حماسي لتجارب فنية جديدة إلا أن إيجـــو الفنان داخلي أبى أن يعترف بهذا و لذلك فقد وافقت متخـــيلاً أنني في حالة الملل سأتسلى بمشاهدة باريس من أعلـــى مركـــز بومبيدو الفني في بوبورج والذي طالما قضيت فيـــه أيامـــاً في مراحل الإنبهار الفني الأولى قبل أن أصل إلى المرحلة الحالية التي توصلت فيها أن الفرق بين أن تبدع أو لا تبدع ليس بهذا الكبر الذي كنت أتخيله ..

أو سأمر على سكني القديم القريب و اتسلى بتحية اصحاب المقاهي المجاورة الذين اصبحوا أصدقائي .. كما أن المعرض لا يمكن ان يكون بهذا السوء .. تحت كل هذه العوامل وافقت.

توجهنا إلى محطة الباستيل القريبة من المترل .. و نزلنـــا إلى عالم المترو الباريسي المتشابك ..

كنت أعجب دائماً بهذا العالم حيث يمكن لك أن تعيش تماما تحت الأرض دون أن تحتاج للخروج كما في فيلم " **subway** " للوك بيسون .. محلات ملابس في المحطات الكبرى .. كافيهات .. بل و محلات للموسيقى و الأفلام .. كانت من نزهي المفضلة في بداية إقامتي الذهاب إلى محطة أوبرا أو محطة ليون لقضاء الوقت بين محلاتها و أحيانا لمراقبة القطارات الداخلة أو الخارجة من المدينة مقنعاً نفسي أني سأقوم بمغامرة خروج جنونية من باريس لم تحدث أبداً ..

ركبنا الخط ١ إلى محطة شاتليه و تدافعنا وسط الخارجين متجهين إلى بومبيدو .. وقفنا في الطابور الطويل المؤدي للمدخل .. بعد عدة دورات داخل المكان و كما توقعت مللت سريعا من المعرض و تركت بياتريس بالداخل و تسليت بإلتقاط صور لباريس من أعلى و لسبب ما إستغرقت في أخذ الصور لكنيسة الساكر كير من بعيد ..

أكنت ادرك من داخلي أن الشيخ سلام في هذه اللحظة يتأمل باريس من أعلى من هناك و كنت أرغب في إلتقاط صورة له دون أن أدري .. أم مجرد مصادفة بحتة ؟

أشك في نظرية الصدفة ..

مرت الأيام التالية سريعاً ما بين ملاحقة الأصدقاء الذين يخافون السهر في منتصف الاسبوع لمتابعة بعض الأفلام و

المعارض .. و الـــسهرات المعتـــادة في الأريـــا .. و بعـــض الإكتشافات لأماكن جديدة كان شبح بيير قد إختفى تماما من الحياة .. و بدأت جدياً في نسيان الهزيمة العاطفية في مـــصر .. بل و أكثر من ذلك .. أقنعت ذاتي أنها لم تكن أبداً هدفاً للسفر بل إن لقاء بياتريس كان هدفاً يطاردني منذ عودتي الأخيرة ..

كانت صياغة جيدة لسيناريو السنة الماضية من حياتي ..

و يوم بعد يوم .. كنت أقترب من بياتريس أكثـــر بـــنفس الإيقاع الذي تقترب به لحظة الإبتعاد ..

حتى جاء يوم الحفلة ..

إستيقظت كالمعتاد على رائحة البن القوية الـــتي إخترقـــت أنفي .. كانت أجراس كنيسة سانت أمبرواز القريـــة تـــدق الثانية عشرة .. فتحت عيني بـــصعوبة و نهـــضت متوجهـــاً للمطبخ ..

- مفيش اي حاجة تتاكل .. ممكن تنزل تجيب كرواســان من المخبز؟

قبلت وجنة بياتريس مبتسماً .. إرتديت ملابـــسي ســـريعاً ونزلت منصاعاً للأمر .. توقفت في أحد الكافيهـــات القريـــة لأخذ قدح سريع من الإسبرسو .. كان العجوزان المجاوران لي

– كالعادة – يتذمرون من الغلاء و من خدعة الإنتقال من الفرنك و اليورو و البطالة إلخ .. أسرعت بعد أن إبتعت من ركن السجائر علبتين لي و لبياتريس من ركن التبغ .. و على باب المقهى وجدت إعلان صغير عن حفلة الشيخ سلام .. تذكرت فجأة تاريخها .. كان اليوم .. لسبب ما لم أكن أريد الذهاب إلى الحفلة .. كنت مكتفياً في الأوساط الثقافية في القاهرة من الموسيقى الصوفية و الفنون التي تستهوي الإستشراقيين .. قررت إخفاء المعلومة عن بياتريس ..

التظاهر بالنسيان كان اللعبة التي أجيدها تماماً ..

عدت إلى المترل بالكرواسان الساخن و خبز الشيكولاتة ما بعد طابور طويل في المخبز ووجدت بياتريس منشغلة بقراءة مجلة عن السينما .. ف

– ح نعمل إيه النهارده ؟

– مش عارف .. الأريا كالعادة ؟

– هي حفلة الشيخ صاحبك كانت إمتى ؟

أدركت أن لا مفر من التذكر .. و بسرعة إتفقنا على الذهاب هذا المساء .. لم تنجح كل محاولات بحثي عن خطط بديلة .. حتى الأصدقاء الذين تمنيت أن يشاركوني الملل كانوا يرفضون الخروج في منتصف الأسبوع ..

قررت أن أترك الليلة تقودني .. تكاسلنا كثيراً في المترل و حين حل المساء .. إرتدينا ملابسنا

و ركبنا خط المترو السابع متوجهين إلى أقرب محطة لمكان الحفل .. و بالرغم من إعتدال الطقس في هذا الوقت .. إلا أنني لم أستطيع ان ألا أشعر برعشة برد تخترقني من الداخل للخارج ..

لم يتوقف الشيخ سلام عن القلق للحظة واحدة طوال الطريق .. كان قد إعتاد حضور الأجانب إلى حفلاته في مصر و لكن مواجهة جمهور كامل لا يعرف معنى كلمة واحدة مما يقول كان شئ أخر .. خاصة مع الشكل الذي لم يعتاده للغناء ..ما بين عازفين لألات إعتادها لألات أخرى إلكترونية أدخلها المشرف الموسيقى على العرض .. جعلت لأشعاره الصوفية طعم الإغتراب ذاته .

بالإضافة لأنه إعتاد أن يدخن سيجارة أو إثنين من الحشيش قبل الغناء تجعله يتناسى وجود الجمهور و يتغلب على خجله الأزلي و لكنه بالطبع لم يستطع أن يسأل خديجة عن ذلك ووقف حاجز اللغة بينه و بين عازفين الفرقة ..

دخل إلى غرفته في المسرح ليرتدي ملابـــس الإســـتعراض (كما قالت له خديجة بالعربية الركيكة)

الغريب أنه كان يغادر ملابسه المتفرنجة ليعـــود للجلبـــاب والعمة المألوفين له .. كان يعودلجلده الأصلي و يخلع ملابـــس الإستعراض ..

وبينما هو يربط العمامة.. دخل عليـــه عـــازف الجيتـــار الإلكتروني الأشقر الضخم مبتسماً و متمتماً بكلام لم يفهمـــه ولكنه شعر إنه يتمنى له حفلا سعيداً و ترك أمامه على المائـــدة سيجارة كبيرة ملفوفة ..

نظر لها بإنتصار ..

و حانت لحظة الصعود على المسرح ..

قابلنا خديجة على الباب وانا أقوم بحجز التذاكر و ركضت نحوي مبتسمة ما أن تذكرت وجهي .. أصرت على أن نجلس في الصف الأول .. كنت أفضل شخصياً الإختفاء في الخلف و الهروب ما أن ينتهي الحفل دون الحاجة لمجاملات مجانية ..

و لكنها أصرت بدعوى أن وجود وجه مألوف في المقدمـــة سيشجع الشيخ سلام ..

صعد على المسرح و بدأ في غناء قصيدة كنت أحبها في مرحلة المراهقة .. حين كان الشعر الصوفي جزءاً من رحلة إكتشاف العالم .. رحلة طويلة من قلب الصحراء إلى القاهرة الإسلامية إلى عالم الموالد و إكتشاف عالم موازي بديلاً عن روحانيات كنت فقدتها إختيارياً منذ الطفولة ..

لم أقضِ فيهِ أسىً ، ومِثلي مَن يَفي روحي فداكَ عرفتَ أمْ لمْ تعرفِ

لم أقضِ حقَّ هَوَاكَ إن كُنتُ الذي لم أقضِ فيهِ أسىً ، ومِثلي مَن يَفي

أتذكر في إحدى الليالي كنا في رحلة مجنونة أنا و حنان إلى الإسكندرية .. رحلة في قلب الشتاء و النسوات .. و ليلاً في الفندق الصغير تحت تأثير زجاجة نبيذ كاملة في بار الشيخ علي و ممارسة محمومة تلتها كتبت لها على المرآة :

الوجد باقي و الوصال مماطل ..

و الصبر فان و اللقاء مسوف ..

و قررنا أن نتركها عند المغادرة و ألا نمسحها .. متأكدين في قرارتنا أن عاملة التنظيف ستظن ان هذا "عمل" من نوع ما و ستفزع حين تراه ..

طالما تندرنا على هذا الموضوع .. إلى أن إكتشفت يوم أن تركتني أنها قد قامت بشراء هذه المرآة مـــن الفنـــدق و أنهـــا إحتفظت بها في منزلها ..

لو كنت أعرف ..

ربما لم يكن هذا ليغير شئ ولكن ..

ما لي سِوى روحي، وباذِلُ نفسِهِ، في حبِّ منْ يهواهُ ليسَ بمسرفِ

فَلَئنْ رَضيتَ بها، فقد أسْعَفْتَني؛ يا خيبةَ المسعى إذا لمْ تسعفِ

أفقت على هذه الجملة لأرى بياتريس مشدوهة النظر تنظر له و صوته يتهدج بألم الطير المذبوح .

بينما كان الجيتار الخلفي الذي يعزف بإيقاع أقرب للـــروك يضفي بعداً غريبا للأغنية التي إعتدتها أعتـــرف أنـــه تملكـــني شخصياً .. لاحظت دمعة في عين بياتريس .. تسللت يـــدي لتتلمس ذراعها ..

لم يكن لوجودنا في الصف الاول تأثير في إطمئنان الـــشيخ سلام حيث أنه كما لاحظت إعتاد الغناء مغمضاً العينين كمن يبحث عن سماء أخرى .. أو كمن يغني للأشخاص البعيـــدين هناك .. هناك في الركن من العالم الذي فر منه كلانا ..

يا مانِعي طيبَ المَنامِ، ومانحي ثوبَ السِّقامِ بهِ ووجدي المتلفِ

عَطفاً على رمَقي، وما أبْقَيْتَ لي منْ جِسميَ المُضنى ، وقلبي المُدنَفِ

فالوَجْدُ باقٍ، والوِصالُ مُماطِلي والصّبْرُ فانٍ، واللّقاءُ مُسَوِّفي

اعترف أن روحي قد ذابت حين وصل لهذا الجزء .. منعت دمعة مراهقة من التسلل من روحي إلى عيني ..إندهشت حين فرت و خرجت من عيون بياتريس مصحوبة ببكاء غزير من كلمات لم تعرف معناها و لكن باطنها نفذ إليها .. كانت نظرتها لسلام تفوح منها رائحة عرفتها منذ زمن ..

و لكنني أنكرت تلك الذكرى ..

ما أن إنتهى من الغناء حتى وجدت نفسي أصفق له بحرارة تتنافى مع كل التكاسل الذي أبديته في المجيء إلى الحفلة .. سحبتنا خديجة من أيدينا و صحبتنا إلى خلف الستائر لنحييه .. إبتسم في صفاء حين رآني و حياني بمودة ..

- *إنبسطت إنك كنت موجود .. وشك طمني*

- *بس شفتني إزاي ؟ عينك كانت مغمضة طول الحفلة*

- *القلب يبصر ما لا تراه العين (قالها ببسمة محت من داخلي بارانويا الجمل المصطنعة)*

ترجمت الجملة لبياتريس و عرفتهم ببعض .. دعتنا خديجة لمشاركة الفرقة الإحتفال في مطعم جزائري قريب قام صاحبه بإعداد الكسكس خصيصاً إحتفالا بالضيوف المصريين

(وأشارت أننا سنأكله بأيدينا كما يفعلون في " الـــبلاد " .. لم يكن لدي حماس خاص و لكن موافقة بياتريس الفورية لم تدع لي مجالاً للرفض ..

كان إيقاع أغاني الراي الصاخب يدفعنا للصراخ كي نسمع بعضنا البعض .. أمكني عبد الكريم صاحب المطعـــم العجـــوز بحكايات و أخبار عن مصر و ذكرياته عن فريـــد الأطـــرش و أفلامه و سامية جمال التي طالما كانت من رمـــوز الجـــنس في مراهقته .. إضطررت لمشاركته الحديث دون أن أرفـــع عـــيني لحظة واحدة عن بياتريس التي لا تتوقف عن الحديث مع سلام و تبذل خديجة مجهوداً مبالغاً فيه في الترجمة بسرعة و نظـــرات الغيرة في عينيها .. رفعت كوب البيرة و إبتلعت منه جرعة ..

كان المكان يحتوي على أحد تلك الاجهزة المنقرضة الجوك بوكس ذلك الصندوق الذي تضع فيه عملة لتختار أغنيتك .. لم أكن قد رأيته إلا في الأفلام القديمة .. إقتربت منه و أخذت أبحث في قائمة الأغاني الموجودة (لاحظت أثناء ذلـــك أنهـــا نسخة معدلة تحتوي على إسطوانات مدمجة (ســـي دي) .. بعض الناس لا يستطيعون الخروج من عاداتهم القديمة حتى لـــو تحولت لمجرد هيكل خارجي مجرد .. ذكرني ذلك بعادة المرور اليومية على بائع الجرائد في ميدان التحرير بالقـــاهرة و شـــراء عدد كبير من الجرائد حتى بعد أن قررت منذ سنين التوقف عن

قرائتها (بأمر من الطبيب كما كنت أقول) .. وجدت أخيراً أغنية من طفولتي لإنريكو ماسياس .. و في نداء يائس وضعتها وجلست على البار و إنتظرت .. نجحت في جذب إنتباه بياتريس إلي .. كانت تسخر دائما من ميلي للأغاني القديمة (الكيتش) كما كنا ندعوها .. بينما أكاد أنا اقدس هذا الكيتش ..

إقتربت من البار و جلست جانبي بحميمية واضعة يدها حول خصري

- إنت كويس ؟

- جدا

- أسفة إني سايباك بس سلام بيحكي لي حاجات مذهلة جداً ..حاسة إني كان لازم أهتم بالصوفية أكتر من زمان .. متيجي تقعد معانا ممكن تترجملي شوية الاشعار بتاعته علشان حاسة إن ترجمة خديجة جافة جدا ؟

إنساب صوت أنريكو يقتر النوستالجيا لمدينته التي يجرها في كعوب قدميه أينما ذهب بشوارعها و روائحها التي لا تخرج من ذاكرته أبداً .. الرائحة دائماً .. هي الذكرى الأكثر ألماً .. هي تلك الذكرى التي تتسلل للا وعيك لتغزوك .. رائحة الأنثى الأولى .. الممارسة الاولى .. المدينة الأولى

كان أنفي محاصراً دائماً بخليط عطري من رائحة جسد أول فتاة مارست الحب معها و رائحة عطن المترو الباريسي

ورائحة نبيذي المفضل .. و لهذا فإن غياب رائحة بديلة عـــن رائحة النوستالجيا كان كافي دائما لدفع دمعـــة خجولـــة إلى عيني ..

- الشعر و بالذات الصوفي إستحالة يترجم من غير ما يفقد روحه ح أخلص كلام مع عبد الكريم و أحصلك ..

كانت دائما تطلب مني أن أفسر لها معـــاني القـــصيدة .. وكنت اشعر أن تفسير كلمات الشعر تقتله .. و لكني كعاشق أزلي .. كنت اتحول لقاتل محترف يقتل القصائد .. يذبحها على هيكل المحبوبة ..

و لكن ليس الليلة ..

قبلتني على خدي و ذهبت من جديد .. لاحظت أنها عنـــد جلوسها تضع يدها على كتف سلام بطريقة غـــير مريحـــة .. طلبت كأسا من الباستيس و قررت الترول إلى الملعب ..

لم يكن للأسف من نوع الأشخاص الذي يمكن أن ادخـــل معه في منافسة طفولية للـــشرب في محاولـــة يائـــسة للتفـــوق الذكوري ..

ما أن جلست حتى أشرق وجهه و حياني برفعـــه لكـــوب العصير الذي يشربه ..

و بعد عدة كئووس بدأت لعبة الـــسخرية اللاذعـــة مـــن الصوفية و كل ما هو روحاني .. وبدأت النظرات القلقة مــن كل من خديجة و بياتريس ..

– واضح يا أخ أسامة إنك لسه ما شفتش .. إنما حــدثتك لترى فإن رأيت فلا حديث

قطع حوارنا وصول أطباق الكسكس على الموائد .. رفــع عبد الكريم كأسه في تحية للضيوف و بدأت مأدبة الطعــام .. مللت سريعاً و إصطحبت كأساً جديدة و خرجت لأدخن في الهواء الطلق

مشيت بعض الخطوات متوجهاً إلى حافة الجسر .. بــدأت أمام نهر السين في غناء نسخة كوميدية من أغنيــة " **je suis malade**" "انا مريض" لداليدا و إنطلقت في غنــاء " **je suis arabe parfaitement arabe**" إني عربي .. عربي تماماً ..

كان مزيج من الهواء البارد و الباستيس و الشجن و الألم مما يحدث بالداخل يأخذني .. علا صوتي بشكل مزعج للمارة من حولي – سمعت التعليق الذي يستفزني أكثر من أي شئ حول إن هذا تصرف طبيعي من عربي – جائت يد لتربــت علــى كتفي لأجدها يد خديجة المبتسمة و بجانبها بياتريس الثملة تماماً في أحضان سلام ..

- إحنا طلبنا تاكسي و ح يوصل بعد دقيقتين ..

بعدها أردفت بياتريس بسرعة أنها ترغب في إستكمال السهرة مع سلام .. أردفت خديجة أنها لا بد أن تعود للمترل وأنها لن تستطيع الترجمة .. أجابت بياتريس بإبتسامة صافية ..

- ح نلاقي لغة للكلام متخافيش..

قبلتني على خدي و نظرت نظرة ذنب مزيفة رددت عليها بإبتسامة المتفهم الأكثر زيفاً

و رحلوا سيراً على الجسر و بينهم تتعالى ضحكات على كلام بلغة لا أعرفها ..

بحثت عن ولاعة لأشعل السيجارة – المبرر الأصلي لخروجي _ لم أجد ولاعتي و تذكرت إني قد تركتها لبياتريس قبل أن أخرج ببرهة .. إمتدت يد خديجة لي بعود ثقاب مشعل ..

- معلهش أصلي مبحبش الولاعات .. بافضل الكبريت ..

نظرت إليها مبتسماً .. وصل التاكسي و أودعتها إياه مقبلاً إياها بحميمية .. حميمية الفقد

و إخترت السير إلى المترل .. لم يوقفني المطر الذي بدأفي الإنهمار على رأسي ..

- واسألْ نُجومَ اللّيلِ:هل زارَ الكَرَى جَفني، وكيفَ يزورُ مَن لم يَعرِفِ؟
لا غَروَ إنْ شَحّتْ بِغُمضِ جُفونِها عيني وسحّتْ بالدُّموعِ الذُّرَّفِ
وبماجرى في موقفِ التّوديعِ منْ ألمِ النّوى ، شاهَدتُ هَولَ المَوقفِ

سرت عابراً جسور عديدة .. يطـاردني غنـاء سـلام في أذني .. لم أفلح في طردها بكل الأغاني التي إنخرطت في غنائها بصوت عالي .. مررت بجانب سان ميشيل فكنيسة نوتردام .. شعرت في تلك اللحظة بشعور كوازيمودو و هو يحب مـن لا و لن يمتلك ..

حاولت المرور بالأريا كي أحتسي كأسا مع إدوارد أو أي من الزبائن المألوفين ..

يوم سيئ لكي يغلق مبكرا هذا الإدوارد ..

توقفت لتناول كأس من التكيلا في أحد البارات المجهولة لي تماماً .. دعوت فتاة جميلة جالسة على البار مع صديقتها علـى تناول الكأس التالي .. بعد عدة ضحكات و كئوس و حـين شعرت ببوادر ليلة إيروتيكية موحية .. غـادرت مـسرعاً إلى المترل .. بعد تبادل أرقام التليفون (على علبة كبريت خاصـة بالمكان) الكبريت مرة أخرى ..

وصلت إلى ميدان باستيل .. من جديد ..

لم يكن لديه الرغبـة في العـودة إلى المـترل و مواجهـة إحتمالات لقاء منتظر مع بياتريس و سلام

تذكرت أنني أحمل مفاتيح شقة صديق صحفي جزائـري يسكن بالقرب من بيل فيل الجيتو الجديد للمصريين و العـرب منحني هذا المفتاح قبل سفره إلى بلاده في أجازة ..

أعطاني المفتاح في حالة ما إذا إحتجت لمسافتي الخاصة بعيدا عن بياتريس (بغمزة لا تخلو من مغزى)

و بالرغم من إختلاف الموقف عما كان يدور في ذهن مهدي إلا أنني فكرت لوهلة إذا كان قد شعر بما لم يخطر في بالي شخصياً .. أكان يرى ما لم أراه ؟ .. قررت أن أسير إلى هناك عابرا من أمام مقبرة بير لا شيز ..

الطريق الذي عادة ما كانت بياتريس تخشاه ليلاً

وددت لو أشعلت سيجارة .. تذكرت إني لم يعد معي ولاعة .. لعنت بياتريس في سري مدركاً أني لأجد محلاً للتبغ مفتوحاً في هذا الوقت فسيكون على أن أعود إلى سان ميشيل .. فال **tabac** في باريس يغلق مبكرا و ليس مثل القاهرة التي يمكنك فيها أن تجد محل سجائر في كل شارع مفتوحاً في الرابعة صباحاً .. لم يكن هناك مارة غيري في الشارع و لم اكن لاخاطر بإيقاف احد في هذه الساعة

غريب الشيخ سلام.. منحني حنان حين هربت من سماعه.. و أختطف بياتريس حين سمعته

كنت أسير مودعاً المدينة بعد أن إنهزمت و سلمت مفاتيحها للقائد المنتصر ..

دخلت إلى المترل .. و مع كأس من الويسكي و سيجارة حشيش التي لففتها بعناء على الطريقة المغربية مغيراً على مخزون مهدي دون أي أزمة ضمير.. أخذت أنقل بصري بين أسطوانة الضوء التي كونتها الأباجورة في السقف و الأمطار التي تغرق باريس من النافذة ..

كانت مدينة نصفها من الأسفلت و جدران البيوت .. ونصفها الأخر من خيالي ..

تمسح الأمطار تدريجياً نصفها الثاني ..

ليتلاشى ..



الفصل الثاني

ترحال



استيقظ الشيخ سلام ببطء .. إستغرق ثواني كـــي يتـــذكر مكانه في قلب هذا المكان الاقرب للوحة بضوء الفجر الأزرق الذي يغزو المكان و يجابه ضوء الأباجورة البرتقالي الباهـــت .. تذكر أنه في منزل بياتريس .. و كان من الجلي أنه لم ينم معها بما أن الامر الواقع يقول أنه نائماً على كنبة في الصالة و هـــي ليست حوله .. حسناً بالرغم من خجله مـــن أســـامة إلا أن الأمور كانت من الممكن أن تكون أسوأ هكذا فكر .. نظـــر على المائدة أمامه ليجد سيجارة ملفوفة على طبق صـــغير مـــن النحاس مزخرف بالخط العربي .. هناك من يسخر مـــني بـــلا شك .. فكر و إبتسم .. أشعل السيجارة و إستنشق الحشيش كمن يلتهم جسد المحبوب بعد إشتياق .. حاول تذكر تفاصيل البارحة .. نظر إلى باريس الرمادية من النافذة و هـــي تبـــدو نصف ممسوحة خلف الضباب ..

دقت ساعة قريبة سبع دقات ... على الأقل لم يخن أســـامة قبل صياح الديك .. هكذا فكر ..

كانت الليلة الماضية من أغرب الليالي التي قضاها ســـلام في حياته .. في البدء كان في قمة الإحراج من أسامة و من تعامل بياتريس معه.. لكن شئ ما غامض كان يجذبه لعالم تلك الفتاة الغامضة التي تغمض عينيها من النشوة و هـــي تـــسترسل في حديث لا يفهم منه شيئاً إلا القليل من إشارات اليد .. و نظراً

لتصرف كل منهم بطبيعية شديدة إعتقد أنها هي و اسامة ليسوا سوى أصدقاء .. حسنا ليكن ما يكون هكذا قــرر في قــرارة ذاته .. توقفت بياتريس في الطريق عند محل صغير لم يلحــظ وجود مثله من قبل يبدو أقرب لمحلات البقالــة القاهريــة .. تعجب من أنه مفتوح في مثل هذه الساعة بالرغم من أنه أعتاد أن تغلق المحلات مبكراً في هذه المدينة .. خرجــت بيــاتريس بزجاجة ضخمة من الخمر و إصطحبته إلى نهــر الـــسين .. و إجتازوا عدة سلالم نزولاً .. عرضت عليه مشاركتها الزجاجة بخجل و هو لم يرفض .. و هنا بدئت اللعبة الأغرب .. بــدء كل منهم في الإسترسال في الحكي دون أن يعي الأخــر مــا يقول.. يمكنه القول في هذه اللحظة أنه أدرك في هذه الليلة أنه هناك شئ ما يتجاوز الكلمات .. كان لصوتها و هو يخـتــرق أذنه معنى ما يتجاوز كل لغات العالم .. تماما كغنائــه الـــذي تجاوز معناه كل اللغات ..

تساءل في هذه اللحظة إن كان الإنسان قد إخترع في يــوم ما اللغة كي يتمكن من أن يتفاهم مع الأخر فكيف أصــبحت اليوم تلك اللغة ذاتها هي الإختراع الذي يمنع الإنسان مــن أن يتفاهم مع الأخــر .. كيــف تحولــت اداة الوصـــل إلى اداة الإفتراق ..

كانت تتحدث بكل ما منح الإله للإنسان مــن أدوات .. بعينيها .. بإبتسامتها .. بيديها الذان يتحركان كطائر يــتعلم الطيران للمرة الأولى .. و الأغرب إنه فعلاً كان مستمتعاً بتلك

الحكاية التي لم تنقلها الكلمات وإنما الإشارات.. كانت لغـــة الإيماء ..

وجد نفسه حين صمتت هي ينخرط في الحكي هو أيضاً .. عن قريته .. عن القاهرة .. عن النجوم المنطفأة في السماء كما كان يراها من الطائرة .. حتى المطر ذاته لم يمنعه عن الحديث ..

إختبأوا ببساطة من السيل تحت أحد الكباري غير عـــابئين بالمدينة من حولهم .. يكاد لا يذكر متى عادا إلى المترل و كيف إنتهى به الحال نائماً على هذه الكنبـــة .. لم يتـــذكر ســـوى إشارات يد بياتريس التي لم تتوقف للحظة و فمها و هو يتفوه بكلمات تعتقد أنها عربية و هو يعجز تماماً عن الفهم ..

كانت بكل وضوح ثملة و تعتقد انها تتحدث العربية بطلاقة و انخرطت في الحديث بلا توقف ..

و في لحظة ما لا يدركها .. سقط في النوم ..

سمع فجأة باب يفتح و خطوات تتجه إليه .. أم إنه رأها من دون عيون تنهض من سريرها و تتجه إليه لتحتضنه برقة مـــن الخلف .. إلتفت إليها ..

- bonjour Moulana ... j espère que t' as bien dormi .. je vais me faire un caffè , t' en veux une?

- صباح الخير يا مولانا .. نمت كويس .. انـــا ح أعمـــل قهوة .. عايز ؟

لم يفهم سوى مولانا (مرة أخرى) و كافيه التي عرف أنها تعني قهوة و بالرغم من أنه شخصياً من مفضلي الــشاي .. إلا أنه فكر في أن الفرنسيون لا يقدرون الشاي كثيراً و ربما لــن يوجد عندها ... بل و فكر أيضاً في عناء الشرح المضني مــن أجل مشروب تافه ..

أومأ برأسه مستلماً لفكرة القهوة ..

كان ما يجول في ذهنه هذه اللحظة أنــه كــان عليــه أن يتحدث مع أسامة "ليشرح له" ..

يشرح له ماذا ؟ لم يعرف هو شخــصياً .. كــم يكــره المواجهات و يحب أن تمر الأشياء بسلام ..

لكن الحياة لا تعطينا أبداً ما تشتهي ..

نظر إلى بياتريس التي تعد القهوة بعد أن وضعت موســيقى فيروز و أخذت تدندن معها بكلمات غريبة .. لا شــك إنــه كان أسامة الذي عرفها بفيروز .. و أعطاها الطبق و ربما أشياء أخرى

ها هو بعد سنين بحث في الشعر الــصوفي عــن ذاتــه .. يستسلم و بسعادة غريبة جداً لدهشة أن يعيش في عالم شخص أخر .. عالم اسامة ..

ابتسم و استنشق رحيق السيجارة .. و توجه للشرفة لكي ينظر للشارع بالأسفل حيث يجري الفرنــسيون إلى امــاكن

عملهم .. البعض في السيارات والبعض سيراً.. الكل متعجل بينما هو يقف في لحظة غير متحركة من الزمن ..

في اقصى العمق كان هناك ملاكاً ذهبياً في وضع التأهب للطيران من فوق احد اعمدة الميادين.. اضفت عليه الشمس لمعة أعمت عين الشيخ سلام لوهلة.. إلى ان التصقت به بياتريس من الخلف و وضعت فنجان القهوة النفاذة على المائدة المجاورة.. سحبت السيجارة من يده واقتربت بفمها من فمه.. تلامست الشفاه ومن بعيد رأي سلام الملاك الذهبي و قد انفصل عن العامود و حلق طائراً إلى سابع سماء ..

استيقظ أسامة في أحد تلك الصباحات الكثيرة التي لم يرغب فيها في مغادرة السرير والإستسلام للنعاس حتى يمر اليوم.. لم يغادر شقة مهدي في الثلاثة أيام الماضية إلا لكي يشتري البقالة و النبيذ أو ليشتري أفلام عديدة بحجة المشاهدة وهو يدرك في ذاته أنه لن يفعل .. وجرائد كثيرة لم يقرأ أي منها.. حتى حين سمع خبر عن سقوط طائرة شارتر في شرم الشيخ بمصر و إنفجار في المترو في أسبانيا .. لم يكن عدد الضحايا بالنسبة له سوى إحصاء أخر لموتى لا يقل موتهم عبثية عن مئات الألاف في العالم أجمع .. كان يصنف الموت لثلاث فئات .. الموت الإرادي و الموت عشقاً (النوعين الأنبل في رأيه) و الموت العبثي و هو ما يشترك فيه الملايين سنوياً ..

حاولت بياتريس أن تحدثه عدة مرات .. لم يجب على التليفون في أي منها .. ليس غضباً و إنما هروباً من المواجهة .. كان يفضل أن يترك الاشياء تمر في سلام ..

هذا الصباح فقط حين تكرر رنين الهاتف أكثر من مرة .. قرر الرد عليها بدعوى أنه قد شفي و تناسى .. أو ربما بشئ من الحنين لم يدري .. و لكنه حين سمع الجرس المألوف لتليفونه ركض من المطبخ حيث إنشغل بإعداد الكريب الذي يهواه — منذ ليلة الحفل و هو يقضي وقت مبالغ فيه في إعداد الطعام في المطبخ ، يعرف جيداً أنه يلجأ للمطبخ في حالتين .. الحالة الاولى حين يرغب في إغواء إمرأة فالمرأة تعشق الرجل الذي يجيد الطبخ .. الحالة الثانية هي الوحدة .. — أجاب بسرعة فائقة على المكالمة ..

– انا عايزة أشوفك ضروري .. من فضلك .. حتى لو مش ح نشوف بعض تاني ..

على الأقل مرة أخيرة ..

بلا شك كان يرغب أن يراها بعشم طفولي أن ينجح في تلك المرة الوحيدة في إستعادتها

إتفقا على اللقاء في مكان محايد .. لم يكن يرغب في اللقاء في الأريا .. كان يخجل من عرض هزيمته أمام من يعرف .. لم يرغب في نظرات التعاطف من إدوارد و الباقين ..

في هذه اللحظة تأكد من أنه " يحمل مدينتــه في كعــوب قدميه " كما تقول الأغنية و ان داخله شرقي يــأبى الــضعف والهزيمة .. إتفقوا على اللقاء بالقرب من الشانزليزيه .. كانت بياتريس مرتبطة بميعاد عمل بالقرب من المنطقة .. لم يــرفض بالرغم من كراهيته لهذا الحي .. بالرغم من كلا مـــن بيلفيـــل والشانزليزيه يعدان مناطق تجمع للعرب فكل منهم له سمتـــه .. ففي بيلفيل تلتقي بهم هاربين من القهر و القمع الإقتصادي في بلادهم .. بإختلاف وجوههم و جنسياتهم فقد أتوا هرباً مـــن جحيم الفقر .. أما في الشانزيليزيه .. فلـــن تمـــر دقيقـــة إلا وتلتقي بأولئك الأتين من بلاد النفط لينفقوا ملايينهم في شراء دلائل على تواجدهم في هذه المدينة أو هدايا لزوجاتهم تكفـــيرا عما يمارسونه هنا دون ان يعنيهم ما يتباهوا به مـــن أخـــلاق وقيوداً إجتماعية في بلادهم .. يجيئون ليأمرون بالمنكر و ينهون عن المعروف من قبيل التغيير و إن لم تجد هؤلاء نظـــرا لأنـــك لست في موسم الصيف ستتعثر حتماً برفاق من مصر أتوا هنـــا هرباً من ديون بالمليارات للبنـــوك .. يجلـــسون في العاصـــمة الفرنسية على مقاهي مصرية فخمة حيث حجر الشيشة يتكلف ما يفوق الخمسة يورو ..يتحدثون عن مصر لترتج اجـــسادهم البدينة ضحكاً .. و بالرغم من هذا وافق على اللقاء في بـــار ليس بعيداً عن فندق جورج الخامس ..

قرر أن يترل مبكراً و أن يسير عابراً باريس إلى الميعاد ..

قام بلف سيجارة سريعاً .. وضعها في علبة سجائره مقرراً أن يدخنها على نهر السين ..

إرتدى معطفه الأسود .. و قبعته التي تخفي نصف وجهه .. و غادر المترل ..

بعد ساعة و نصف من المشي و عـــدة إســتراحات علـــى ضفاف السين .. تناول خلال إحداها بكل جــرأة ســيجارته الملفوفة بالقرب من حديقة التويلوري .. وصــل إلى المكــان ليجدها تنتظره على مائدة بالقرب من النافذة ..

توقف لمدة خمس دقائق كاملة .. ينظر إليها مـــن خلـــف الزجاج تدخن سيجارتها و تقرأ في كتاب ..

إجتاحته رغبة في أن يلغي فكرة الدخول مـــن رأســـه و أن يقف هنا ليراها من بعيد لأطول وقت ممكن .. ربما ليمتلكهـــا دون أن تكون لديها فرصة لتفسد هذه اللحظة بالحديث ..

بعد دقائق خمس .. إخترق بوابة المقهى .. إبتاع علبتين من السجائر من ركن التبغ .. و توجـــه رأســـا إلى طاولتـــها .. إحتضنته بعنف شديد و قبلها هو بحميمية بالرغم من إنه وعـــد نفسه بتصنع البرود .. لفت نظره عنوان الكتاب الذي كانـــت تتصفحه عن فلسفة التصوف في الحضارات الشرقية .. و يحمل

على غلافه الصورة الكلاسيكية للدرويش المولـــوي الـــراقص التركي ..

- قبل كل حاجة .. عايزة أقولك إني عارفة إني جرحتـــك جدا باللي حصل ..و إن أي إعتذار أعتذره ح يكون حاجـــة مزيفة جدا .. بس ..

- بيا (هكذا إعتدت أن أدللها) أولاً إنتي مش مدينـــة لي بأي إعتذار ..إحنا لما عرفنا بعض .. اللي حسيناه كان فـــوق أي إحساس بالإمتلاك ..و زي ما بيير إحترم اللـــي حـــسيناه ناحية بعض .. أعتقد إنه دوري أنا كمان إني أعمـــل نفـــس الحاجة ..المهم عايزك إنت تكوني سعيدة باللي بيحصل ..

- مش عارفة .. حاسة إني مشدودة جداً لعالم ســـلام .. حاسة إنه فتحلي بوابة على عالم مكنـــتش أعـــرف عنـــه أي حاجة .. أغرب حاجة إني أتموس بعالم التصوف و أنا عمـــري ما أمنت بأي حاجة في حياتي مش كده ؟

- مش غريبة خالص .. ح تندهـــشي مـــن عـــدد اللـــي ميبؤمنوش بحاجة من أوروبا و بييجوا مصر يتسحروا بالعـــالم ده.. برضه التصوف في نوع من السحر السياحي الخاص ..

رأي رد فعل واجم على وجهها .. شعر أنه قد تمـــادى في إهانته الغير مباشرة .. حاول تغيير الموضوع .. بسؤال مجـــاني عن أخبار عملها .. أخبرته إنها تعد لمعرض فوتـــوغرافي عـــن

الصوفية و إنها تحاول الذهاب في رحلة إلى العالم العربي للتعرف على هذا العالم .. و لكنها لازالت تنتظر ان تمتلك ما يكفي من المال كي تفعل هذا .. فبياتريس كانت في حالة من الإفلاس اللانهائي منذ عرفها .. تعمل مؤقتاً في مهنة لا علاقة لها بالفن و سرعان ما تمل و تتركها لتبحث عن ذاتها و عن مشاريعها الفنية حتى تزداد ديونها فتعود من جديد لهذه الدائرة العبثية ...

بعد الكثير من الحديث الذي أعاد شئ من الهدوء للعلاقة أراد الإنصراف حيث أنه دعي للقاء بعض الأصدقاء لمشاهدة الفيلم الأخير لبيرتولوتشي عن مايو ٦٨ في السينما ..

إستوقفته عند الباب ..

- حاجة أخيرة .. عارفة إنها صعبة عليك بس سلام نفسه يقابلك .. هو طلب مني أعزمك تطلع معانا لحفلته الاخيرة في فرنسا في مدينة دوفيل .. هي على بعد ساعتين من باريس مش بعيدة .. ح نقضي يومين هناك بالضبط مش اكتر

أسامة لو لي حق إني أطلب منك طلب واحد أخير .. تعالى معانا ..

لو قال لأحد أصدقائه منذ عام إنه ستتداخل حياته مع حياة منشد صوفي و أن إحدى مريديه سيطلب منه أن يصحبهم في رحلة ربما كانت رحلة بحث عن الذات لقال الصديق أنه بلاشك إما يسخر منه أو إنها نكتة ..أوشك ان يعتذر لها متعللاً

بإنشغاله و لكن نظرتها الوديعة شلت قدرته على الـــرفض ...
هز رأسه موافقاً .. قبلها على خدها و سار نحـــو البـــاب ..
إستوقفته بنداء جعله يلتفت فورا

– اسامة .. انا لسه باحبك زي اول يـــوم اتقابلنـــا فيـــه بالضبط.. لكن ..

لم تكمل .. نظر اليها و قام بهز رأسه مبتـــسماً و غـــادر المكان ..

كانت حفلة الشيخ سلام الأخيرة في العاصمة الفرنـــسية ..
في الأيام السابقة تمكن مع بياتريس بشكل غامض في تكـــوين
لغة مفرداتها مزيج من العربية و الفرنسية و الإشارات و إيماءات
العين

بشكل غامض جدا أصبحا يستطيعان التفاهم .. في كل ليلة
كانت تأتي إلى المسرح و تجلس في الصف الأول .. كان على
المسرح يراها فقط ..

كانوا و بصرامة شديدة إستطاعوا تفادي التلامس الجسدي
في الأيام السابقة .. برغم من رغبة كل منهم العنيفة في إقتحام
جسد الأخر إلا أننا أحيانا ما نكتشف أننا نخشى ممارسة الحب
مع هؤلاء الذين نرغب فيهم أكثر ، ربما كان خوفنا الدائم من
النهاية .. عادة ما تكون اللحظات التي نلتقي فيها غريبـــاً أو

غريبة في أحد البارات و نبدأ في الحديث معه أكثر إمتاعا من ما يليها ..

التساؤل الدائم عما سيلي و غموض الساعات القادمة فيه سحر الجنس ذاته .. لابد أن نواجه الأمر فإن النشوة او الأورجازم يأتيان في اللحظة التي نغادر فيها هذا الباب المسحور و يأتي الإتفاق المتواطئ على التشارك في الليلة .. تأتي النشوة مع التساؤل و تموت ما أن تولد الأجابة

و لهذا فكان الشيخ سلام يخاف من لحظة التلامس هذه المرة أكثر من المرات السابقة ..

حين رأها للمرة الأولى ، كان شئ غامض جداً يجذبها إليه .. لم يستوعبه إلا في لحظة إستيقاظه الأولى في مترلها .. كانت عيناها تغمضان كلما تحدثت بحماس عن شئ ما .. و حين كانوا يسيران عائدين للمترل في تلك الليلة الأولى .. إستغرقت في رقصة مجنونة في الشارع لاحظ أنها أيضاً تغمض عيناها و هي ترقص .. كان لإغماض العين من النشوة شبقاً خاصاً .. ربما كان الذنب يسيطر عليه مما حدث مع أسامة ، هذا الشاب الذي لم يبدي له سوى اللطف التام و لكم من هذا الذي يستطيع مقاومة شبق العيون المغمضة من فرط النشوة ... كان يعرف أنه ليس سوى إنسانا ضعيف أمام رغبة الوصال .. و برغم من ذلك كان شئ غامض يدفعه لتأجيل لحظة

الممارسه .. كان يهلع كلما إستغرق وقتاً طويلا في أحضانها .. إتفقوا على أن تكون ممارستهم الأولى في رحلة دوفيـــل فربمـــا كان هذا وقتاً كافياً للتألف ..

في تلك الليلة الأخيرة أخبرته أن أسامة وافق أن يــصحبهم إلى الرحلة .. كان هذا يعني عقبة واضحة في مخططهم دون أن يعوا .. فالممارسة و أسامة في المدينة شئ .. و الممارسة و هـــو في الغرفة المقابلة شئ أخر .. لم يدرك سلام هــذا إلا حـــين زارته في الكواليس و حملت إليه النبأ

لم يكن هناك رواد كثيرين بالقاعة .. اقل من ربع المـــسرح ممتلئ و كان هذا طبيعياً في منتصف الأسبوع و لأنهـــا الحفلـــة الأخيرة ..

صعد إلى المسرح .. كالعادة غنى و هو ينظر لها فقط ..

للحظة واحدة فقط رفع عينه ليرى ظلا مألوفاً لم يتعـــرف عليه في الخلفية .. عاود النظر إليها

هذا الظل ربما و لابد هنا من وضع أسطر عديـــدة تحـــت كلمة ربما .. كان أسامة ..

كانت أيام قليلة تفصل بين أسامة و الرحلة المرتقبة .. كان قد مل باريس و لم يعد يشعر أنه يريد البقاء هنا .. برغم مـــن

كثرة أصدقائه إلا أن لغياب بياتريس القدرة على منح المدينة الحميمة طعم أقرب للخواء بالإضافة لأنه شعر بتوتر من البقاء في شقة مهدي مع عودته لباريس .. كان مشاركة صديق السكن في تلك المرحلة يحتوي ضمنياً على الكثير من الحكي و البوح و التنظير من جانب الصديق و هذا بالذات ما كان يريد الهروب منه .. كان التواصل الإنساني الوحيد الذي قد يرغب فيه أسامة هو تواصل إيروتيكي بحت ليس إلا .. وحتى هذا لم يكن على قائمة أولوياته .. كان في أشد الحاجة إلى إكتشاف ما جديد .. كما يدعوه .. فكر في ذهنه أنه ربما كان الشيخ سلام ليستخدم كلمة كشف بدلاً من إكتشاف ..

- *ربما كان داخلي أنا أيضاً متصوف من نوع آخر .. متصوف لا يؤمن بأي شئ*

هكذا فكر في سره و هو يحتسي كأسا من النبيذ الذي ظل له طعم الوطن حتى لو تلاشى هذا الأخير ليصبح صورة فوتوغرافية أو رحيق شراب أو أغنية تقتر النوستالجيا ... أثارت تلك الفكرة الضحك في داخله .. فهقه بصوت عال و لم ينتبه إلا على صوت الباب ينفتح ليدخل مهدي عليه ..

كل الضحك ده و أدخل ألاقيك لوحدك .. الواحد سهل يتوقع من على السلم إن فيه " بارتوز " (جنس جماعي) قائم في الشقة .. واشك يا أخي .. فين بنات باريس ؟

كان مهدي يميل دائما لتلك الالفاظ الحميمية في النـــداء " أخي " " صديق" و أحياناً رفيق من باب التندر علـــى ميـــول أسامة السياسية خاصة بعد أن إستــــسلم لنظريـــة أن الـــيمين الفرنسي بالقليل الذي يمنحه يحمل اجندة سياسية أكثر تقدمية من وعود اليسار التي تنتهي في قاع السين ..

بعد إنتهاء الزجاجة .. و إنتهاء الحكي . . توقـــع أســـامة رحلة التنظير المؤلمة و لكنه فوجئ بصمت تام من قبل مهدي .. إحتاج لبضعة دقائق لكي يتجاوز الصمت ..

- كنت دايما باقول إن عينين بياتريس فيها حاجة بتقول إنها ح تروح بسرعة زي مابيقولوا عندكم في السينما " علاقتكـــوا كانت بنت موت "

يبدو دائماً الأصدقاء ذوي بصيرة نافذة كما يهيأ لهم فعادة ما أن يحدث لك شئ فهم أول من رأه أو أول من تنبأ بـــه .. كما لو كانوا يعرفون مسبقاً بمصائبك و يرفـــضون تحـــذيرك منها.. لماذا يتباهي الأصدقاء دائماً بذكائهم علـــى حـــساب مصائبك .. عادة نجح أسامة في التخلص منـــها منـــذ زمـــن و يدهشه دائماً أن الناس تستمر في فعلها .. لماذا إشتريت هذا الكتاب ؟ لماذا تلك السيارة ؟ أه تلك الفتاة .. كنت أعرف

ألم يكن من الممكن عليهم التصريح بهذا التنبأ من قبل ؟ أو فليستسلموا لأنهم لا يعرفون شئ .. مثله لا يعرفون شـــئ .. علينا أن نعترف حين نكون فعلياً كلنا في الظلام ..

- عموما النهارده في عيد القديس العزيز صديقك فالنتين إنا معزوم لحفلة عند صديقة جزائرية لطيفة جدا .. تعالى معايا .. ح نستمتع ..

لم أكن في مزاج خاص لإحتفاليات من هذا النـــوع ، بـــل كان مزاجي أكثر في مغامرة من نوع تلك الليلة التي إلتقيـــت فيها بياتريس للمرة الأولى .. إعتذرت متعللا بإرتباطي بميعاد مسبق ..

ايوه كده .. إنك تقضي يوم الفالنتين لوحدك من الخطايـــا السبع الكبرى ..

بعد أن تشاركنا فيما تبقى من سجائر الحشيش التي لفهـــا مسبقا بطريقة المغاربة (بوضع جزء من السيجارة نفسه بـــدلا عن الكرتون أو الفلتر .. إرتديت أفضل ملابسي كمن يعرف مسبقاً إلى أين يذهب و غادرت ..

وصلت إلى ميدان شاتليه دون هدف معين .. أو ربما بنيـــة عبور السين إلى بارات سان ميشيل حيث لقاءات محتملة كثيرة مع الأجانب عابرين المدينة من مختلف البقاع .. بحثا عن مغامرة محتملة أو إكتشاف عابر ..

لست أدري لماذا تذكرت في تلك اللحظة جميل .. أحـــد المصريين الذين عرفتهم عن طريق الصدفة في باريس .. كـــان يعيش هنا منذ أكثر من ١٢ عام دون أن يـــنجح أو يهـــتم في

الحصول على أوراقاً رسمية .. إعتدنا معاً السهر حتى الفجر واعتاد ان ينفق في هذه السهرات راتبه المتواضع من البنتيرة أو الدهان كما يدعوه العرب هناك في ليلة واحدة أو ليلتين .. كان يقول أنه بما أنه ليس من غد متوقع .. فلا جدوى من الحرص عليه .. شعرت في تلك اللحظة بالذات أنني أخشى (او ربما أرغب فما أقرب المسافة بين الإثنين مهما توهمنا أن العكس صحيح) أن أنتهي مثله .. كنت في تلك اللحظة بلا أي رغبة للعودة للقاهرة حتى و إن كنت لا أمتلك أي سبب واضح للبقاء .. فقد هربت عاطفيا من القاهرة إلى باريس .. كانت ملجأي و لكن تلك الرحلة هي رحلة إتجاه واحد..

كان يعرف أن اللعبة لا يمكن لعبها من الناحية الأخرى ...لا يمكنه الهروب من جديد .. جالت بباله هذه الفكرة بينما نوتردام على يمينه .. أشعل سيجارة و أحكم الوشاح على رقبته .. أوقفه إثنان من السياح الأسيويين ليسألوه عن كيفية الوصول إلى كنيسة الساكر كير .. تسلى بالشرح بالتفصيل لهم لكيفية الوصول بالمترو و أين ينبغي عليهم التبديل .. لم يشعر بالفخر المعتاد لهذا الموقف بل شعر بشئ من التعالي المبالغ فيه من ناحيته .. في تلك اللحظة بالذات لم تكن مفاتيح المدينة في يده .. لم يكن أكثر من مدعي .. طفيلي يدعي الإلتصاق بوطن ليس ملكه .. كان غريباً .. او كما يقول ساخراً

" الآخر .. هو أنا " .. اشعل سيجارة أخرى من عقب الأولى و أستكمل طريقه إلى ميدان سان ميشيل .. لم يتوقف كما توقع في المنطقة بل عبر إلى السوربون و الحي اللاتيني .. توقف حين فاجأه المطر و دخل أحد البارات ..اخذ يجرع كئووس التكيلا واحدا تلو الأخر .. كان خلفه مجموعة من الطلاب العرب يتناقشون بخليط من العربية و الفرنسية حول فيلم شاهدوه للتو .. كانت أكثرهم حماساً فتاة قصيرة الشعر تونسية كما خمن من لهجتها و كانت تهاجم الفيلم بحماسة .. كانت تجلس مسندة ظهرها على الحائط ممكنة إياه من مشاهدة وجهها بوضوح في المرأة المواجهة له على البار ..لا بد أن يعترف أن قصيرات الشعر بهم شئ عادة ما يجذبه .. ربما شئ من قوة الشخصية التي يعكسها شكلها .. كانت تتحدث عن الفيلم الذي رأوه محللة إياه أنثروبولوجياً .. كان حديثها من الملل بالكم الكافي ليفقد إهتمامه بشعرها و بصدرها المنمق الصغير الذي يرتج نشوة مع الحديث و إشارات الإستغاثة الأنثوية التي تنطلق منها دون خجل ..

حالت بباله حنان .. تلك الفتاة التي دفعته لخوض هذه الرحلة منذ البداية .. تسائل أين قد تكون في هذه اللحظة .. في معرض أو حدث ثقافي .. أو في أحضان رجل أخر.. بشكل غريب و غير مبرر شعر بالغيرة ..

تذكر الليلة الأولى حين إلتقوا في حفلة سلام ..

كانوا ينام على المرتبة التي إعتاد أن ينام عليها منذ سنين في غرفته رافضا بإباء وضع سرير في الغرفة .. ربما كجزء من إحساس الرحالة داخله .. مرتبة على الأرض و غرفة في فوضى دائمة .. كيس نوم يحل محل الغطاء على السرير .. كان مستلقي على المرتبة بينما إفترشت هي بعض المخدات الموضوعة بالقرب من السرير منهمكة في التقليب في صوره و أشياءه في فضول غير مريح بالنسبة له ..

- مش بس غناه .. حاجة غريبة فيه فيها صفاء غريب .. سلام عنده قدره غريبة إنه يحسسك إنك موصول بجسد العالم ..طول عمري كان عندي مشكلة مع كل ما هو ميتافيزيقي في حياتنا ..

كانت تتحدث عن كل هذا الهراء الخاص بالنيو إيج (العصر الجديد) **new age** من نوعية جسد العالم و الطاقة الداخلية و اكتشاف الأسطورة الذاتية و هي تشعل سيجارتها مرة أخرى من الكبريت .. بعض الأفكار من الأفضل أن تسمع من الجميلات بلا شك .. منعته بأيديها الرقيقة من أن يشعل سيجارته من شمعة ..

- لما بتولع سيجارة من شمعة .. فيه بحار بيموت

بالرغم من إحساسه بهراء الجملة إلا أن إيروتيكية اللحظة جعلته يتوقف عن الإشعال من الشمع للأبد فيما بعد ..

تسائل لوهلة هل لو كان لم يلتقي بحنان .. و لـو إسـتمع للشيخ سلام في حفلته في القاهرة للنهاية أكان كل هـذا قـد حدث ؟ رفع كأس تكيلا أخير .. نهض من مكانه .. و إتجـه بخطوات ثابتة نحو الفتاة قصيرة الشعر .. و حين لفت نظرهـا ومن حولها إقترابه بما لا يدعو للشك .. قام بنـصف دورة و خرج سريعاً من الباب .. لم يدري لماذا فعل هذا .. و لكـن الهروب منحه متعة خاصة ..

حين عاد إلى المنزل لمح ضوء في غرفة نوم مهـدي و عـبر الباب الربع مفتوح رأى جسداً أنثوياً بضاً يقترب من السرير .. إبتسم و همس في ذهنه ..

عيد فالنتين سعيد يا صديقي ..

وضع قرص من السولبادين في نصف كوب من الماء تحاشياً لأعراض الشراب الصباحية السخيفة

إستلقى على الكنبة

كان وجه باسماً هو أخر ما رأه في اللحظة الفاصلة قبل النوم

تلك اللحظة التي تدرك فيها أن هذيان الحلم يتسلل إليك

أكان حنان أم بياتريس .. أم إنه سلام أم الثلاثة ؟

"ليس هناك شيء يدعي الهوى بل هناك فقط الدلائل على وجوده"

كانت هذه العبارة لجون كوكتو ترن في ذهنه بلا توقف و هو يسير.. كان يسير في شوارع مدينة لا يعرفها .. كان متأخراً على ميعاد مع سلام .. كان يسير و يدور يعود إلى نفس الميدان من جديد .. و كلما سأل أحد ما عن الطريق يهز رأسه دون تعاطف .. كانت بياتريس تنتظره بقلق كلما دار وعاد إلى الميدان مؤكدة أن هذا اللقاء يجب أن يتم فورا كانت تجلس في أحد المقاهي تتحدث مع فتاة عربية مكتنزة الشفتين (عجز عن تذكرها) .. سار حتى أصبحت قدميه تؤلماه كما لو كان حذاؤه كان يضيق كلما سار .. شعر برغبة في التخلص منه .. و فعلها .. سار حافياً و قدميه تلمسان الحجر البارد للطريق .. العشب .. التراب .. بدأت رجلاه في أن تدميان و لكن ذلك في حد ذاته بعث الراحة في داخله .. حين دار دورته السابعة وصولا للميدان من جديد .. إبتسمت له بياتريس من جديد محيية إياه من بعيد .. و رغم المسافة كان يشم رائحتها .. بادلها النظرة و اختفى من جديد في أحد الشوارع و للمرة الأولى لم يكن الطريق يتفرع .. كان شارعاً واحداً طويلا و في نهايته كان يقف بناء شرقي الملامح .. أحد تلك البيوت التي تراها في الأفلام اليابانية .. سار بلا توقف .. لمح الشيخ سلام واقفاً في أحدى النوافذ و أشار له .. بدأ في صعود السلم المؤدي إلى المترل .. كانت قدمه بدأت في أن

تؤلمه .. و الدماء تنزف بغزارة و لكنه صمم على الوصـــول .. كان يواصل الصعود و لكن المترل يأبى الإقتراب .. كان هناك ظلا لفتاة لم يتبينها تقف خلف الزجاج بالقرب مـــن الـــشيخ سلام .. كان يعتقد أنه يعرفها من شكل جسدها و إن كـــان يعجز عن تمييز ملامحها .. في لحظة ما .. توقف في مكانه و ود أن يعود أدراجه إلى الميدان لملاقاة بياتريس و نسيان هذا اللقاء.

نظر ورائه ...لم يرى سوى سلالم نازلـــة .. ممتـــدة بـــلا نهاية ... وقف في مكانه متردداً ..

النزول اللانهائي ..

أم الصعود إلى الشيخ سلام

و الفتاة التي تقف وراء الزجاج

و بثقة شديدة تشعل سيجارتها بعود من الكبريت ..

إستيقظ فجأة من النوم على صوت خطوات على الـــسلالم الخارجية .. اللعنة على المباني البارسية و ضجيجها ..

كان مهدي و صديقته يشربان القهوة على المائدة بـــالقرب منه .. غزت رائحة القهوة أنفه و تسللت لجوفه الفارغ ..

إبتسمت الفتاة و هي تنظر له ..

- بونجور .. واضح إنك لسه مخلصتش من عادات "البلاد" بتصحى الساعة ١٢ الظهر

-أسامة مصري (مصححاً المعلومة) وفاء صـــحفية مـــن الجزائر و عايشة هنا في باريس بتكتب لل" ليبي" (مختصراً إسم الليبراسيون)..

نهض أسامة متثاقلاً و أجاب التعارف بإبتـــسامة .. دخـــل المطبخ سريعاً ليعود بقدح كبير من القهوة

أشعل سيجارة و وقف في النافذة ينظر للمدينة محاولاً إيجاد معلم من معالم حلم البارحة و لكنه عجز .. تـــابع بـــشغف الشارع الذي لولا مبانيه لظننته في قلب القـــاهرة .. كـــان في الجزء المصري من باريس .. اسماء محلات مكتوبة بالعربيـــة .. بقالة النيل .. معرض الاهرام .. بشر لفحت وجوههم شمـــس الجنوب أو ورثوا هذه السمرة عن أبائهم و أجدادهم كذكرى لصحراء لم يعرفوها قط ..

كان الملل يتسلل لداخله بعنف .. فقدت باريس البهجـــة وأمامه عدة أيام حتى الرحلة الموعودة ..

كان عليه الرحيل .. ربما كان هذا أوان تلك اللعبة .. حزم حقيبة ظهره و توجه إلى "**gare du nord**" محطـــة القطـــار الأقرب إليه .. كان عازماً على الخروج .. بلا هدف أو إتجـــاه محدد .. فقط كان يرغب في إكتشاف جديد .. وصـــل إلى المحطة و كانت نقطة البداية .. لعدة ايام ، كانت القطـــارات هي مكان نومه و المدن الجديدة تتواصل صـــورها في لقطـــة

بانورامية واحدة .. عاد لصداقته الأزلية مع الكاميرا ليختزل الاماكن و قصصها إلى لحظات ثابتة .. من شوارع بروكسل إلى مقاهي أمستردام .. كان يطوف المدن كمن يحج ليتطهر من ذنوبه .. حين عاد لباريس كان يبدو كواحد من هؤلاء الحجاج .. ذقنه نابتة و ملابسه لم يغيرها من أيام .. لكن شئ ما داخله لم يتغير .. لم يجد البهجة أو الكشف الذي كان يبحث عنه .. عبرت خاطره فكرة ما أن أسوأ رحلات الإكتشاف في حياته هي تلك التي خاضها محاولاً الكشف حينها يصبح كل شئ مكرراً .. عاد بمئات الصور و بلا ذكرى واحدة .. حلت الكاميرا محله في إلتقاط الذكريات و حرمته منها دون أن يدري.. ما أن خرج من المحطة و نزل إلى مترو الانفاق حتى إشتم الرائحة المعهودة لباريس و تعرف عليها فوراً.. إستنشق رحيقها كمن يشرب من بئر ماءه بطعم الوطن.. وهاهي من جديد .. المدينة التي – كما قالوا عنها – تحبه ...

ببطء متناه .. فتح سلام عينيه .. شعر بسخونة شديدة في معدته كما لو كان إبتلع ناراً ..

هذا الصباح .. لم يستيقظ على وهج الأباجورة البرتقالية وإسطوانة ضوئها في السقف التي تصارع زرقة الفجر .. و لم تخترق رائحة قهوة بياتريس أنفه بتلك الرائحة التي غدت محببة إلى أنفه تماماً كرائحة جسد المحبوب .. بل رائحة الروح

ذاهًا .. نعم .. فللروح رائحة..هكذا فكر .. للروح رائحة الإشتياق.. ادرك ببطء انه عارياً في سرير بياتريس .. وأن هذا الجسد العاري الرقيق الملتف حوله هو جسدها .. بصعوبة إنسابت إليه ذكريات البارحة حيث إصطحبته بياتريس لحفلة عند بعد الأصدقاء للتعارف .. تبادل معهم حوارات مقتضبة بما إكتسبه من لغة فرنسية ضئيلة طوال الوقت الماضي ..كان بلا شك محط الأنظار .. تعامل معه الجميع على أنه ضيف شرف الحفلة .. أسئلة لا تنتهي عن مصر و المصريين و الإسلاميين و حقوق الأقباط و الأقليات .. كانت فرنسيته الرضيعة لا تسعفه في هذه المواضيع مما أثر بشكل كبير على وجهة نظره .. فأحيانا يكون عليك تبني رأي ليس بالضرورة ملكك طالما أنك لا تمتلك الكلمات للتعبير عن رأيك .. هكذا فكر ..

تذكر أنه قد إحتسى الكثير من كئووس الخمر التي عرضت عليه إحتفاء به .. لا بد و أن هذا سبب الحريق الذي يشعر به في أحشاؤه .. و لكنه لم يدري كيف تتطورت الامور للنوم مع بياتريس .. و لا كيف إخترقوا الحد الزمني الذي وضعوه .. كل ما يذكره أنه سار معها في شوارع باريس عائدين إلى المترل .. و أهم عبروا بالقرب من السوربون و من مبنى يدعونه البانتيون في الحي اللاتيني و كان منظره ليلاً يسير القشعريرة في جسده .. و أن بياتريس كانت تحتضنه و تحاول إقناعه بعدم الغناء بصوت عالي في الشارع .. كان هذا في مرحلة تسبق تلك التي إنتشت فيها و بدأت تتمايل سيراً على صوته ..

سبقته بعدة خطوات و إســتدارت لتواجهــه و تمايلــت كالدراويش على أنغام غنائه لقصيدهما المفضله "قلبي يحــدثني " والتي كان قد نجح أخيرا في ترجمتها لها بمعاونــة صــديق لهــا مغربي .. كان ثملا .. و كان الضوء يتمايل أمامه على اسفلت المدينة و كذلك كانت هي ..

كان الليل كله يرقص طربا لغنائــه .. و لم تفلــح المبــاني القوطية المخيفة حوله في نزع رومانسية اللحظة .. بشكل غير مفهوم له .. وصلوا إلى المترل .. صعدا السلالم مترنحين ..

إقتحما الباب .. و بعد خطوات قليلة إقتحم كــل منــهم جسد الأخر في فضول .. و كان الوصال ..

لم تكن السعادة هي أول إحساس يجتاحه في هذا الــصباح كما قد يتخيل البعض .. بل الخوف ..

كان أكثر ما يخيفه في هذه اللحظة هــو لحظــة إســتيقاظ بياتريس .. كان بلا شك يحب هذا الكائن الراقــد بجانبــه و جسده يتلامس معه في إسترخاء كما لو كانا جزئان من جسد واحد ..

كانت قد نجحت في غزو روحه بكل تفاصيلها .. طريقــة نطقها للكلام الذي عادة ما يعجز عن فهم ثلاثة أرباعــه .. بحركات أيديها العصبية .. و برائحة الأنثى التي تغزوه كلمــا إقترب منها .. و لكن .. بالرغم من تجاهل كل منهم للسؤال.. إلا أنه كان يؤرقه كل ليلة ..

ستنتهي فترة إقامته في باريس .. و يعود إلى قريته منـــشداً أشعار الوجد الصوفي .. سيقترب أكثر من كلمات ســـلطان العاشقين إبن الفارض ... و ستعود هي إلى طقوس مدينتها .. سيترك مدينة النور و يعود .. مجذوباً نحو الضوء ..

عرف نساء كثير .. إشتهىهاهم و نالهم .. و لكن بيـــاتريس لم تكن كذلك ..

كانت كشفه .. و كانت خيط الوصـــال بينـــه و بـــين روحه ..

كانت بهاؤها أكبر من أن يمتلكها جسد فان .. و ضـــياؤها أكبر من أن يُنسى في لحظة البعاد ..

و لكن هذا المستقبل خرج من حـــساباته في الأمـــس .. و بالتأكيد لم يعنيه هذا الصباح ..

فقط لو إستطاع الإختفاء قبل أن تستيقظ ..

أن يغادر قبل أن يضطر الصمت للرحيل ..

و لكن للأسف .. سبقت قبلة الصباح الحانية على وجنتـــه خطة الرحيل ..

و على رائحة قهوة الصباح و صوت المدينة في الخارج ..

بدأ الحديث الذي لا مفر منه ..

حين قرر كل من بياتريس و سلام الانتظـــار .. لم يكـــن لديهم من مبرر واضح .. بل ربما أن مبررات كل منهم كانت مختلفة في التمهل على الجانب الجسدي للعلاقة .. فسلام كان يحتاج لفترة ما بعد علاقة بياتريس بأســـامة .. ربمـــا بـــالمنطق الشرقي فترة من العدة ليس مـــن الـــضرورة أن تبلـــغ الحـــد الشرعي .. و لكنه بما أن بياتريس لم تكن مجرد جسد يحتويـــه من باب الشهوة و إنما نوع من الكشف أو النور الذي ظهـــر في حياته .. كان يريد أن يمتلك كل منهم الأخر دون أشـــباح من الماضي ..أما بياتريس فكان الإنتظار فيه لمحة إكزوتيكية من التسامي الصوفي .. و بما أنها أصبحت تماماً "صوفية غير مؤمنة " كما أصبحت تدعو نفسها .. كان هذا الإنتظار فيه إحساس رحلة الحج التي تخوضها لكي تقترب[1] مـــن ذاتهـــا .. و لكـــي تستحق التواصل مع المحبوب .. كما في الأشعار التي بدأت تقرأ ترجمتها .. لم يعنيها كثيراً أسامة بما أنهما كانا يعيشان دائمـــا على علاقتهم في منطقة من الحلم ما بين مناطق أرق العلاقات الأخرى .. كانا يجيدان الإقتراب فقط مع البعد ..

و لكن مع ذلك كان في خرقهم للإتفاق أثراً بالغاً من التوتر على كلا منهم .. كلاهما كان يفضل عدم المواجهة ..

كان كلا منهم يتلعثم بكلمات ما بين فرنـــسية متـــرددة وعربية خجولة و إنجليزية مفككة .. توصلوا في الأخر إلى تبرأة أنفسهم من الذنب بإلقاء اللوم على النبيذ .. طالما كـــان مـــن

السهل أن يتحول الخمر إلى كبش الفداء العصري لكل خطايا الإنسانية دون أن يكلف أحداً نفسه عناء إعطاؤه لقباً دينياً لمهمته أو رفعه لمنصب القداسة ..

و إحتفالاً بهذا القرار.. و بهذا القربان ..إحتوت بياتريس جسده بشبق إحتفالا بتعميد علاقتهم و تبرئتها من الخطايا.. و إستكملوا من حيث إنتهى الأمس ..

خطوات قليلة هي التي تفصل ما بين مترل بياتريس و محل البقالة الصغير المجاور او كما تعلم الشيخ سلام أن يسميه كالفرنسيين "**le petit arabe au coin**" أو العربي الصغير على الناصية .. و الذي يمتلكه جزائري عجوز يدعى عبد النور يجيد لهجة المصريين في أفلام الخمسينات و الستينات .. و يقدر نجوم السينما المصرية كسعاد حسني و نادية لطفي و زيزي البدراوي .. و لكنه فضل أن يسير قليلا حول المنطقة متوجها إلى ميدان باستيل القريب من المترل وأن يطوف قليلا في الشوارع الهادئة .. كان يحتاج لهذه الوحدة بعد كل ما كان يحدث في حياته بشكل أسرع من أن يستوعبه ..

هاهو في مدينة النور التي كان مجرد ذكر فكرة الرحلة إليها يثير الرعب في أوصاله .. و ها قد بدء يدرك مدى صغر هذه المدينة التي دائماً ما نتخيلها شاسعة .. و تخلص من خوفه .. بل و وقع في عشق أحدى سكانها .. و أصبح يقترب أكثر من

حافة الهاوية .. و كلما إقترب كلما إزداد بهاء المنظر بأسفل ولكنه أيضاً و في الوقت ذاته يقترب من السقوط .. مدركاً أنه المنظر الأبهى سيكون هو ذاك الذي يراه في لحظة فقدان التوازن وحين يسلم جسده للهاوية ..

ماذا سيحمل الغد .. ايستطيع أن يعود لقريته و يتناسى ما رأى ؟ أيستطيع أن يتعامل كما لو كان لم يلتق بها و لم يعرف هذه المدينة ؟ .. و إذا قرر العكس .. فماذا يفعل ؟ لا بد أن يتوقف قليلاً عند كلمة قرر .. فهي كلمة تبعد عن كل ما فعل منذ أن وطئت قدمه هذه البلد .. كان منجذباً كقطب المغناطيس للقطب الأخر .. هكذا كانت بياتريس بالنسبة له .. كانت الاسئلة تدور في عقله كراقص تنورة فقد القدرة على التوقف .. شعر فجأة برأسه تكاد تنفجر من الدوران .. إنتبه فجأة أنه كالمجذوب لم يتوقف عن اللف في دوائر حول العامود الواقع في منتصف الميدان .. توقف عن التفكير .. إستنشق نسمة هواء من السماء الرمادية التي هجرتها الشمس و عاد متجهاً إلى "العربي الصغير على الناصية " ..

عاد الشيخ سلام بما إشتراه بعد جلسة دردشة و شاي دعاها إليه عبد النور صاحب البقالة ..

لا بد أن يعترف انه يألف كثيراً لهذا الشخص الذي يتحدث لغته حتى و إن كان يتخلل عباراته كلمات مثل " غرضي "

و" يا عزيزي " كما لو كان يتحدث مع حـــسين صـــدقي .. كان الحديث كالعادة لا يتجاوز أخبار البلاد و النقـــود الـــتي يبعثها لفتح مشروع في الجزائر يمكنه من العودة هـــو و أولاده (ذوي الثمانية عشرة و العشرون عاماً) حتى يتربـــوا علـــى العادات العربية و قلقه عليهم في باريس مدينة الغواية .. و قليلاً من الحكي عن موضة العصر " بن لادن " و العرب ما بعد ١١ سبتمبر .. لملم الشيخ سلام ما يحتاج من الأغراض و ودعه عبد النور إلى الباب بحميمية ..

- *صباح سعيد يا مولانا ..*

لم تعد الكلمة تحمل له السخرية الماضية و لكنه أدرك فجأة أن عبد النور قد أصبح صديقه الوحيد في هذه المدينة .. ها قد بدأت المدينة تمنحه الصداقات .. ربما كانت دعـــوة مـــا .. أو علامة ..

حين وصل المترل مثقلاً بأكياس البقالة .. وجدت بياتريس منشغلة في توضيب حقائب كل منهم .. تذكر أنه كان اليـــوم الأخير قبل السفر .. إذا فالغد هو يوم اللقاء و المواجهـــة مـــع أسامة ..

حسناً يا باريس

إلي بأصدقائك و أحبائك و حتى بمواجهاتك

فلم أعد أخشاكي ..

كان صباحاً دافئاً .. اليوم هو يوم العطلة الأقسى .. الأحد.. حيث معظم المحلات مغلقة و تكاد تخلو الشوارع من الفرنسيين إلا من إضطروا للخروج أو لعدد من السياح .. بما أن حقيبته لم تكن ثقيلة .. قرر أسامة أن يتمشى المسافة الفاصلة بينه و بين محطة سان لازار باحثاً عن مقهى يمكنه فيه تناول القهوة و الإفطار .. و بعد عدة مئات الأمتار .. وجد ضالته .. كان يرغب بشدة أن يفوته القطار .. لم يكن يريد المواجهة سواء مع الشيخ سلام أو مع بياتريس .. كانت الايام الماضية التي جاب فيها مدن عدة قد جعلته على مسافة بعيدة جداً من الإثنين و من القصة كلها .. كان دهراً قد مضى منذ أن ذهبا إلى الحفل .. غريب امر الذاكرة الحسية للإنسان .. فهي كزجاجة رفيعة جدا تتراكم فيها الأحاسيس فوق الأخرى .. فذكرى أيام معدودة من السفر و الترحال والصور و النساء تراكمت فوق بياتريس و جعلتها تبتعد .. و لهذا فليس من مصلحته اليوم بالذات أن يخض تلك الزجاجة ليختلط ما فيها و يطفو ما بأسفل لأعلى .. فهذا سيحدث من تلقاء ذاته ما أن تمتلئ الزجاجة في كل الأحوال .. إحتسى عدة أقداح من الإسبرسو و إكتفى بقطعة خبز مدهونة بالزبد

و واصل السير إلى المحطة .. حين وصل إكتشف أنه كان قد غالى في تقدير المسافة و إنه قد وصل قبلهم .. أخذ يطوف بالمحلات القليلة الموجودة بالمحطة لإهدار ما تبقى من الوقت ..

كان سائق التاكسي الذي ركبه الشيخ سلام و بيـــاتريس للمحطة لا يتوقف عن الرغي مع بياتريس و كالعادة يتذمر .. الطقس .. البطالة .. الأسعار ..

بدا عليه أنه لا يصدق أن بياتريس تصطحب هذا العـــربي بمحض إرادتها و بما أنها مرغمة على مرافقته إلى مكان مـــا .. ربما (لحسن الحظ) لمحطة القطار كي يأخذ القطـــار المتوجـــه للمطار ليغادر مدينته للأبد .. فعليه كفرنسي مخلص أن يكون مسلياً لها في صحبتها لهذا الشخص ..

تجاهل إرادياً وجود سلام .. و تجاهله الاخير شاكراً لضعف لغته توفير عناء الأحاديث المجانية ..

لعبة مارسها أكثر من مرة خلال الفترة الماضية حتى و هـــو أحياناً يفهم ما يقوله الأخرين ..

ولكن الصمت أحياناً هو أفضل وسيلة لإطلاق ما يــسكن الروح من حديث ..

إستطاع فهم الكثير ممن تحدثوا معه بشكل أفـــضل حـــين تظاهر أنه لم يفهم ما يقولون و بالتالي لم يجيب بل إنه أحيانا ما كان يتجاهل ما يعرف من كلمات فرنسية و يفقـــد إراديـــاً التركيز في الحديث .. و هكذا كان يفهم من أمامه ..

نظر لبياتريس في صمت يراها تتحدث مع السائق بحمـــاس حين تطرق الحديث لموضوع العرب المنتشرين في بـــاريس ..

كانت مبهرة بردائها الذي يذكره بأفلام الابـــيض و الأســـود الأمريكية التي رأها بعض المرات على التليفزيـــون أو الـــصور القديمة المهترئة .. الحق أنها كانت تهوى إرتداء تلك الأثـــواب التي ربما لم تعد تصنع .. كانت تهوى إرتداء ملابس ورثتها عن جدتها أو عن والدتها .. وكان هذا يضفي على بياتريس لمحـــة أسطورية من القرن الماضي.. حين تعرفت على أسامة .. أخذ لفترة من باب المزاج يدعوها بإسم إنجريد برجمـــان في فـــيلم كازابلانكا إلسا .. الممزقة ما بين حب" ريك "همفري بوجارد و "فيكتور " بول هنريد .. هل كانت مصادفة ؟ فكر ســـلام كثيراً في الجملة الأولى التي يجب و ان يقولها لأسامة .. كيـــف يبدأ في قول ما يريد .. و ما الذي يريد ان يقوله من الأصل .. كيف يصف له وهج ما عاشه منذ لقاء بياتريس ..

فحتى و إن كان أسامة قد تعرض للوهج ذاتـــه .. إلا اننـــا عادة ما ننكر الكشف الذي يحدث لنا عن الآخرين .. كـــان يتأمل الطريق الخالي متمنياً ان يمتد إلى ما نهاية .. ولكـــن .. لم يستغرق الطريق وقتاً طويلاً حتى وصلا للمحطة .. تنفس سلام ببطء ناظراً لمبنى المحطة .. أنزلا حقيبتهم المـــشتركة و إخترقـــا البوابة .. كان يسمع صوت دقات قلبه .. بعد لحظات سيواجه أسامة ..

كانت السماء مشمسة بالرغم من البرد الذي يغلف باريس .. كان يوماً عادياً ككل يوم .. أو لعله عادياً ككل أيامي .. اليوم كنت اغادر باريس..

في المترو الذي يقلني للمطار .. كان عازف اكورديون عجوز يلعب اغنية " تحت سماء باريس "ابتسمت ساخراً و انا اتساءل في سري إن كان ممكن للحظة ان تكون اكثر مجانية .. رحيل .. اكورديون .. اغنية حزينة .. الكيتش بعينه .. نفحته ورقة مالية اثارت دهشته مكافأة على المفارقة .. كعادتي عند السفر .. طلبت من بياتريس و الشيخ سلام الا يأتوا للمطار ليودعوني ..كنت أقول دائماً أن أنني أكره الوداعات .. و لكني كنت دائماً أتمنى أن يتمسك الطرف الاخر بتوديعي أو أن يفاجئني في المطار كي أختار الإختيار الصعب بين البقاء و الرحيل .. أو أن اسألها كما ألهو مع بياتريس دائماً أن ترحل معي (كأحد مشهد فيلم من أفلامي الصينية المفضلة) و لكن بما إني لست في فيلم صيني و لا كازابلانكا .. فها أنا ذا راحل بدون وداع من مطار أورلي نظراً لأن مطار شارل دي جول به إضراب ما ففرنسا تشتهر بالنبيذ و الجبن و الإضرابات بلا شك .. كنت قد امضيت أياما كالحلم في الرحلة مع الشيخ سلام و بياتريس .. و مع العودة إلى باريس .. أدركت أن المدينة ترغب في رحيلي .. فهي عادة ما تعطيني إشارات واضحة .. و لعل قرار سلام و بياتريس بالزواج كان احد هذه الإشارات ..

قمت بشراء الحزين المعتاد من الخمور من الاسواق الحــرة متخيلا نظرة موظف الجمارك في مصر المترعجة .. زاد هــذا الخاطر من همي للشراء.. ما أن فككت حزام مقعدي حــتي إستغرقت في تذكر وقائع يوم وصولنا و الفرح المفاجئ الــذي أقامه الشيخ سلام و بياتريس بعد أن قرروا الزواج بساعات... كنا في القطار معاً حين أخبروني بالنبأ ..و بالرغم مــن كــل توقعاتي فإن الخبر أثار نوع من السعادة لدي .. ربما كان سببها نظرة السعادة الصافية في عيني بياتريس .. أدركت إني أبداً لم أمنحها مثل هذه النظرة ..

مع قدوم الربيع .. انشرح صدري قليلاً .. كان شئ ما في برد باريس و سماءها الرمادية يثير نزعة من الكآبة داخلي .. في اليوم الاول للدفء استيقظت شاعراً ان شمس قريتي الصغيرة قد جائت لتزورني .. كنت خارجاً لتوي من المبنى الــذي يتــولى شئون الإقامة الخاصة بي بعد إتمام زواجي من بياتريس ..

كان كل من بياتريس و خديجة هم من يقومون بالتعامل مع الأوراق و العجرفة المتوقعة في هذه الحالات .. ما بين طــوابير العرب و الافارقة و الأوجه من جنسيات العــالم اجمــع الــتي جائت تطلب في باريس الملجأ ..

تحدثت في الإستراحة مع بعض الجزائريين و المغاربة الــذين امضوا سنينا طويلة في التردد على هذا المكان .. و حكــوا لي عن التعامل المجحف الذي يعاملون به .. كم يمكن للبحث عن

وطن ننتمي له أن يكون مهيناً .. و لكن السؤال هـــو ايهمـــا نتحمل إهانة اوطاننا الإختيارية .. ام إهانة اوطاننا التي ولـــدنا فيها ؟

آلمته هذه الجملة التي جائت على لسان شخصاً سورياً كان يجلس بجانبه و فهم من حديثه انه يعاني من مشاكل سياسية في العودة لبلده ..

كنت قد تخلصت إجبارياً من ملابسي " المثيرة للريبة " كما قالت خديجة و بياتريس .. وبدأت في الإعتياد علـــى ملابـــس إختارتها لي بياتريس تتراوح ما بين اللون الرمادي و الأسود .. مأكدة انها تجردني من وقار " الشيوخ .. حاولـــت كـــثيراً ان افهمها انني لم اكن شيخاً .. وأنني مجـــرد منـــشد ..و لكـــن حسناً.. هناك لحظات تستطيع تغيير رؤيـــة العـــالم لـــك .. ولحظات يكون عليك ان تتوافق و هذه الرؤية ..

خرجت من المبنى وحيداً بعد ان اخبرت بياتريس و خديجة انني بحاجة لنزهة .. ذهبت كل منهن إلى عملها .. و خرجت انا من المبنى التاريخي الضخم للبلدية و قـــد انهيـــت اوراقـــي حاملاً هوية و ملابس تسمح لي بالتواجد في هذا البلد و لكن على مسافة بعيدة جداً من ان اسميه وطناً.. كـــان أصـــدقائي الوحيدين في باريس لازالوا بياتريس .. خديجة و عبـــد النـــور صاحب البقالة و عازف الجيتار الذي تحول لممولي بالحـــشيش دون ان اعرف حتى اسمه ..

توجهت للبقالة لإحتساء الشاي مع صديقي على قدمي بعد أن إجتزت شارع ماجنتا و لونوار دون اي لحظة من التردد .. اصبحت احفظ المنطقة من ميدان ريبوبليك و الى مترل بياتريس في بومارشيه كقريتي في مصر .. ظل عبد النور يسألني كعادته عن أخبار العائلة في مصر كما لسو كسانوا مسن أصسدقائه الشخصيين ..

الحق أنني قد أرسلت لهم خطاباً واحداً قصيراً جدّ أخسبرهم فيه ببقائي لفترة أطول في باريس دون تفاصيل .. لم أكن على استعداد لشرح أي شئ لهم قبل أن أفهم أنا شخصياً ما أريسد شرحه ..

كانت الشهور الماضية مع بياتريس كالحلم .. كانت هسذه الفتاة كرسول من الجنة جاء ليحمل لي نار و وهج الحيساة .. ملأت حياته بالعشق الذي طالما تغنى به دون أن يعي معنساه .. اصطحبته لأماكنها المفضلة و زاروا معاً مدينتها الاصلية تولوز وتعرف على والدتها التي تعاملت معه بحميمية محت الكثير مسن برود الفرنسيين .. كانت تفعل المستحيل كي تجعله ينتمي لهذه المدينة .. ويعترف انها نجحت لحد كبير ..

كان كشرقياً يخشى الحب و ممارسته .. كان الجنس مربوطاً في قلبه بالخطيئة بحكم التنشئة و لكن كان لرحيق الحب مسع بياتريس طعم القدسية .. كانت ممارستهم تقسارب الإنسشاد

والمديح جلالاً بالنسبة له .. اعتادا بعد الممارسات في اوضاع لم يعرف ابداً بوجودها في الكون ان ينشد لها اغان صـــوفية و ان تقرأ له هي شعراً فرنسيا لم يعي منه كلمة واحدة و لكن نبرتها و هي تقرأه منحت له الإدراك دون الفهم ..

بحثت خديجة في إيجاد وظيفة له في احد المراكـــز الثقافيـــة العربية لتعليم الإنشاد .. لم تكن عظيمة الأجـــر .. و لكنـــها منحته إستقلالية مادية حررته من هواجسه الذكورية الشرقية ..

كان الربيع و الدفء فعلاً يجتاحان المدينة ..

مدينة باريس .. و مدينته

لمعتادي مغادرة القاهرة علاقة خاصة جداً بهذه المدينة الوفية وفاء الزوجة الشرقية التي يغادر زوجها المترل لشهور و يعـــود ليجدها كما تركها تماماً .. لم تتغير البتة ..

هكذا أشعر كلما عدت ..ولكني هذه المرة إستقبلت المدينة عند عودتي بعناق حميم كمن لم رها من سنين طوال .. ربمـــا لإني كنت هذه هي المرة الأولى التي أعود إليهـــا فعليـــاً مـــن باريس..

لم تحتسب كل رحلات العودة الماضية .. عادة ما نتعـــرف على المدن بشكل حميمي أفضل حين ننفصل عـــن ســـرعتها ونعيش فيها بإيقاعنا الخاص .. اعترف أنني في الأيـــام التاليـــة

لوصولي تعرفت على القاهرة بعين مليئة بالدهشة حين كان كل شئ يسير حولي بسرعة صاروخية و انا اسير وسطها بنفس الإيقاع المتمهل .. طفت لأيام عديدة في مثلث مقاهي وسط البلد ما بين الندوة و الحرية و زهرة البستان و البورصة باحثاً عن اصدقاء قدامى أو جدد .. دخلت في طوفان من اللقاءات المتعمدة و غيرها .. و لم يكن لأي منها اي طعم ..ولا حتى من باب الحنين .. بدأت الصدمات حين إلتقيت حنان أمام بائع الجرائد المفضل لدي في ميدان التحرير .. قضيت دقائق أختار ما بين الجرائد وإلتفت لأجدها امامي .. كانت ترتدي حجاباً وملابس واسعة و تسير ممسكة بيد شاب اقل ما يوصف به هو اللزوجة (لاحظت أنها ترتدي قفاز أسود في يدها) و لم أندهش كثيراً حين نظرت لي ثم تجاهلتني متظاهرة أنها لم تعرفني .. أو ربما لم تعرفني فعلاً .. فربما تتغير أشكالنا حين ننفصل عن مداراتنا حول المدينة و ننطلق متخبطين بإيقاعنا الخاص ..

بشكل ما كانت حنان تتغير كالمدينة التي اصبحت تسدل خمارها على وجهها يوماً بعد الآخر ..

ليلاً .. وقفت في الشرفة أتطلع للمدينة النائمة و في ذهني سؤال واحد فقط كاد أن يبتلع رأسي ..

هل مازالت تشعل سجائرها بإستخدام الكبريت ؟

على الأرجح .. هي توقفت عن التدخين تماماً .. و لكن هل لو قررت أن تعود أو أن تدخن سيجارة النوستالجيا .. هل

ستستخدم الكبريت ؟ كان هذا اهم لدي من كل التغيرات التي من الممكن أن تلحق بها .. في مسحة حنينية .. قلبت شـقتي رأسا على عقب بحثاً عن علبة كبريت أشعل بها سيجارتي ..

اصبت بمس من الجنون و انا اقلب الأثاث بعصبية .. كمـا لو كنت ابحث عن دواء فيه إنقاذ لحياتي (كما لـو كانـت تستدعي الإنقاذ).. للأسف لم أجد .. جلست منهكا أنظـر للفوضى التي احدثتها حولي و الدموع تنهمر من عيني و بما إن الوفاء ليس بلعبتي المفضلة ..

خنت الحنين و أشعلت سيجارتي بقداحة لم أذكر أبدا كيف أمتلكتها .. ناراً لا تحمل ذكريات لسيجارة بلا متعة و لا ألم..

في الأيام التالية .. ترددت عدة مرات على ضـريح إبـن الفارض .. ألفت الجلوس في هذا المكان ..

ربما إقترابا من العالم الذي أصبحت بياتريس تحيا فيه ..

مرت أيام فشهور .. فقدت تدريجياً طعم الأشياء و أصـبح للإبتعاد طعمه الخاص ..

أدركت في سخرية مرة إنني شخصياً أصبحت أتحول لصوفي من نوع خاص .. ربما كنت احاول أن اصبح انا ايضا الـشيخ سلام .. أو ربما هي نزعة الإبتعاد عن الدنيا و مراقبتـها هـو الذي جعل مني ذلك الشخص ..

ربما كان في البعد و المسافة و الميل للمشاهدة نزعة صـــوفية خاصة ..

قمت ببعض الأعمال السريعة التي منحتني نوع من الثبـــات المادي .. حاولت تجميع الصور التي إلتقطهـــا في جـــولتي في أوروبا و عمل معرض ما .. إلا أنني فوجئـــت بـــأنني كنـــت ألتقطها بعين السائح الذي ينبهر بكل ما هو مجاني .. ألغيـــت الفكرة و تعاملت مع واقع أنني لا أرغب في أي عمل إبـــداعي كان في هذه الفترة .. حتى مغامراتي الجسدية المحدودة كانـــت عبارة عن إعادةفتح للملفات القديمة بها بعض الحنين الجسدي و لكن بلا طموح في الإكتشاف ..

باختصار .. كنت أتواجد لا أحيا ..

مرت أيام فشهور فسنوات فأياماً أخرى .. حـــتى جـــائتني الرسالة .. كانت الفتاة النائمة بالقرب مني تغط في نوم عميق.. انتابني الارق الغريب الذي يهاجمني حين انام بالقرب من الغرباء ..و لهذا ما كنت افضل العلاقات في منازل الأخـــرين حيـــث يتاح لي ان اجد حجة في الهروب مبكراً (و الحجج في مصر لا تنتهي من خطورة النزول صباحا والبواب مستيقظ أو الجـــيران أو المحلات المجاورة او ضرورة العمل باكرا إلخ) .. كان ضوءاً أصفراً مزعجاً من الشارع يضئ جسد تلك الفتاة التي عـــبرت حياتي في عدة مراحل اعتدنا ككل الأساطير ان نقـــسمها إلى سبع مراحل وأن نعد بعضنا اننا سنتوقف عند نهاية السابعة ..

و بما إننا كنا في الخامسة – كما كانت تقول و إن كنت اعتقد أنها تغش فانا اتذكر تسعة على الأقل – فكان امامنا شئ مــن الوقت .. قررت ان اخذ إستراحة من المرحلة الخامــسة و أن أنهض لمراجعة رسائلي الإلكترونية التي مضى عدة ايام .. و ما بين الرسائل المعتادة .. لفت نظري رسالة من فتاة تدعى خديجة تحمل عنوان صباح الخير من باريس .. في بداية الرسالة كانت تسألني إن كنت أتذكرها .. وبالطبع من بين كل من نلتقيهم في موانئ الحياة .. كان من المستحيل أن أنسى فتــاة تــشعل سجائرها بالكبريت .. اخبرتني انها ترسل لي بالنيابة عن الشيخ سلام الذي لم يجيد بعد التعامل مع الإنترنت .. كانت تكتــب بالعربية الفصحى التي اثارت لدي الكــثير مــن الــضحك .. أخبرتني انه يريد الحديث معي للاهمية .. وأرســلت لي رقــم هاتفه الخاص .. قالت إنها تعرف إنني لابد و إن أتي لبــاريس قريبا و انها تتمنى لقائي على خير ..

أثارت دهشتي .. لم يكن في مخططاتي اطلاقا السفر في تلك المرحلة .. وكانت باريس المدينة الاخــيرة الــتي ارغــب في لقائها..إستسلمت للنوم في الصالة علــى الكنبــة متمنيــا ان استيقظ لأندس في سرير المرحلة الخامسة قبل الفجــر تفاديــاً لتبريرات مجانية .. استيقظت كالعادة بعد الظهر لأجد رســالة عنيفة من الفتاة تنذرني بنهاية المرحلة .. نهضت بلا إكتــراث خاص .. قمت ببعض المشاوير الروتينية في زحام القاهرة لأعود في بداية الليل إلى منزلي تذكرت فجأة موضــوع الرســالة ..

ترددت كثيرا ثم قررت ان اقوم بتلك المكالمة .. رن الهاتف عدة مرات .. اجابني صوت الي يطلب مني ترك رسالة .. ثم صمتت ليأتي صوت سلام و هو يقول إسمه

ثم سمعت الصفارة .. بدأت في الكلام متلعثماً ثم اغلقت الخط مدركاً انه ما من رسالة عندي لأتركها .. رن الهاتف بعدها بثواني برقم غير معلن على الشاشة .. قمت بالرد و كان هو .. معلهش .. ما كانش ينفع أرد من جوه .. أسامة ..

Il faut que tu viennes , le plus vite possible -

- *لازم تيجي بأسرع ما يمكن ..*

بياتريس بتموت ..

نظر إليّ موظف الجوازات بنفس النظرة المبتسمة المجانية حين رأى خانة المهنة في جواز السفر .. مصور ..

- *سيما ولافوتوغرافيا ؟ مفيش حاجة نازلة لحضرتك في رمضان ؟*

ابتسمت وهززت رأسي بالنفي و توجهت رأسا للأوتوبيس الموصل للطائرة .. مرت الأيام منذ المكالمة و حجز التذكرة بسرعة جنونية .. بينما انا اربط حزام الكرسي في الطائرة .. إسترجعت المكالمة الغريبة سرطان في المخ .. كيف يمكن ان يحدث هذا لفتاة في هذا العمر ان تصاب بمثل هذا المرض ..

نعتقد دائما ان تلك الامراض او تلك الكوارث تحـــدث في الجرائد للاخرين ..

حسناً .. كلنا كنا مصابين بحالة من السرطان العاطفي منذ امد و لكن لا احد يموت من هذا ..

او لعلنا متنا منه منذ زمن ..

شئ ما من الجبن في داخلي كان يتمني ان اصل بعد فـــوات الأوان ..

اقسى اللقاءات التي نخوضها هي تلك التي نعرف مسبقاً أنها الأخيرة .. على القدر ان يخدعنا و يدعنا نفترق بامــل لقـــاء آخر .. اسوأ الكلمات هي تلك التي ندرك انها الأخيرة ..

ما ان نزلت في المطار حتى توجهت مباشرة إلى المستـــشفى التي اعطاني الشيخ سلام عنوانها ..

لم يكن لدي الوقت للتفاخر بركوب المتـــرو مـــن المطـــار كعادتي إدعاءً إني من اهل البلد .. اخذت تاكسي مباشـــرة إلى العنوان المكتوب على ورقة (كالسياح) .. رأي الـــسائق إني عربي و في مجاملة مجانية (او ربما طمعاً في بقشيش سخي)

ترك لي قناة راديو تذيع أغاني فيروز ..

لا يدوم إغترابي .. لا غناء لنا يدوم

كانت المدينة في اهى ثياها .. الرمادي .. كان اللون الذي يليق بها ..

و عندما أدركني المساء

حبيبتي جائت من الضياء

ما بيننا منازل الشتاء

يا اسفاً للعمر كيف ضاع ..

للحظة وددت ان اطلب منه ان يقطع وسط المدينة عبر سان جرمان .. ليمر من امام ليب و كافيه الدو ماجوا .. شعرت إنني لو مررت من هناك لربما رأيتني انا و بياتريس جالسين في المقهى .. نتبادل الحديث .. كالمرة الأولى ..

و لكن .. كفاني من منظر السائح الذي يبدو علي و كفى إقتراراً للمدينة

فإمضي في غيابي .. و اتبعيني إلى الغيوم

ما احيل رجوعي .. متعب أتبع المساء

و أخيراً وصلت إلى المستشفى ..

انزلني السائق و اعطاني الحقائب متذمراً من عدم اعطائي له بقشيشاً .. خاصة و بعد ان تحمل ساعة من الغناء العربي ..

نظرت حولي لأجد خلفي محطة للمترو تنتمي لنفس خـــط المطار .. كان من الممكن ان اصل لهنا في اقل من خمسة عشرة دقيقة ..

مرة أخرى كانت المدينة تسخر مني .. تخـــرج لي لـــسالها و تؤكد لي إني لست سوى سائح .. عابر مؤقت للمدينـــة .. هزت كتفي و دخلت من البوابة ..

كانت من أصعب دقات الباب التي قمت بها في حياتي .. لم يكن الرفض على الناحية الأخرى .. بل أسوأ .. كان الموت .. دقة مترددة ثم دقتين .. صوت مألوف بالفرنسية يطلب مـــني الدخول .. لم أتبينه في البدء .. فتحت البـــاب و دخلـــت إلى الغرفة .. اعماني في البدء ضوء النهار الذي يهاجم الغرفة مـــن النافذة .. ميزت بسرعة الشيخ ســـلام بملابـــس اوروبيـــة .. و بجانبه كان صاحب الصوت .

بيير .. كنت نسيته تماما كما لـــو كـــان ينتمـــي لحيـــاة أخرى .. و على السرير .. كانت بياتريس اخرى غير تلـــك التي عرفناها نحن الثلاثة مستكينة .. فقـــدت عيونهـــا الـــوهج المعتاد .. الكثير من المحاليل المعلقة على جوانب السرير ..فقدت شعرها الذي طالما قبلته في تقديس .. دخلت خلفي ســـيدة .. حيتني بإبتسامة باهتة .. ادركت من وجهها أنها والدة بياتريس التي طالما حدثتني عنها .. حيتني بقبلة على الخد ..

- *إنت اكيد اسامة .. بياتريس كلمتني عنك كتير ..*

نظرت لبياتريس .. و على عكس ما توقعت كان الصمت لم اجد حتى التحية المناسبة .. و نظرت هي لي بوهن .. وتلك المرة .. لم يكن للصمت كلمات .. إبتسمت و قالت :

-merci d être venu mon beau pharaon

- شكرا لإنك جيت يا فرعوني الجميل ..

إبتسمت و رددت بغمغمة غير مفهومة .. انقذني دخـــول الممرضة منبئة إيانا بإنتهاء ميعاد الزيارة ..

قبّلت بياتريس على رأسها و إحتضنتها لمدة قـــصيرة جـــدا خوفا من نظرات من حولي .. قامت هـــي بلمـــس خـــدي بيديها .. خرجت من الباب متبوعا ببقية الفريق ..

كانت جلسة غريبة جدا في المقهى .. انا و بيير و الـــشيخ سلام.. ثلاثة رجال مجتمعين على حب فتاة واحدة .. واحـــد فقط يمتلكها و الثلاثة على وشك أن يفقدوها .. لم يكن هناك التوتر المتوقع لهذه اللحظة .. كان بداخل كل منا حالـــة مـــن التعاطف مع الأخر .. حتى بيير لم ينظر لي نظـــرات العـــداء المعتادة ..

وافاني الشيخ سلام بأخر المعلومات حول الحالة الطبيـــة .. كانت حالة من حالات السرطان المتأخرة و لم يكـــن هنـــاك

الكثير الذي يمكن فعله سوى إنتظار الموت و الإستمتاع بما تبقى من الحياة ..

إنتابني حالة من الغم .. إحتسيت رشفة كبيرة من البيرة وأنا أسألهم عما قرروا أن يفعلوا .. لم يكن لدى اي منا إجابة واضحة ..

- و بياتريس؟

نظروا إلي غير مستوعبين السؤال .. شرحت سؤالي .. ماذا ترغب بياتريس في ان تفعل ..

كان امامنا كل الحياة .. فمن نحن لكي نقرر كيف لها ان تعيش ما تبقى من ايام لها ..

كان وضعاً غريباً أن نضطر ثلاثتنا للبقاء في شقة بياتريس معا .. و لسوء الحظ لم يكن مهدي في باريس كي أتمكن من الحصول على مفاتيح شقته .. وصلنا إلى المترل ووضعت حقيبتي .. و تلطيفا للجو .. عرض بيير علينا ان نذهب إلى الأريا للتخفيف من حدة الجو .. كان من الغريب ان حميمية ما خلقت بيني و بين بيير بما انه يعرفني اكثر من سلام بالرغم من كل ما سبق .. جعلني وضعي هذا في منطقة الوسط بين الإثنين .. بما أنني كنت لا أحمل سجائر .. أعجبت بفكرة الخروج من المترل ..

سرنا المسافة القصيرة الفاصلة بين المترل و الأريا .. و لعنت حظي مرة اخرى لهذه المدينة التي تغلق محلات السجائر فيهـــا ابوابها مبكرا إلا في أحياء بعينها .. لحسن الحظ كـــان ركـــن السجائر بالبار المجاور للأريا لم يغلق بعد .. إبتعت علبة بينمـــا الرفيقين ينتظراني بالخارج يتجاذبان اطراف الحديث..

كان الموجودين في البار قلائل جدا .. و لم يكـــن إدوارد موجودا .. كنا قد قررنا الا نطيل حتى نتيقظ باكراً للـــذهاب للمستشفى .. اخذت اجرع كئوساً من الموخيتو بلا توقف .. تسليت بمشاغلة فتاةعنيفة جدا كانت تعاركت للتو مع صديقها الذي غادر البار غاضبا .. كانت تتحدث بصوت عال جـــدا يزعج من حولها .. و كانت تبدو كمن تعرف بيير بشكل مـــا إذ تبادلوا اطراف الحديث .. و فجأة وجدتني منغمس معها في حوار لا ادرك معالمه .. و بيير جالس بعض اصدقائه .. فقـــط الشيخ سلام جلس صامتاً ينظر لنا .. و تحـــت تـــأثير الخمـــر للحظات .. كنت أرى بياتريس جالسة مكانه ..

حليقة الرأس كما رأيتها بالمستشفى .. باسمة .. و قامـــت فجأة شعرت إنها تتجه إلي .. تنظر لي باسمة و تغادر المكان .. نهضت متثاقلاً لكي ادخن سيجارة بالخارج لاعنا البرد و قوانين منع التدخين في الاماكن العامة سوية .. تبعتني الفتاة متسائلة إن كنت سأرحل بصوت جعل الجيران بالدور الأعلى ينـــهرونها للضجيج (في الحقيقة لم تكن وحدها التي تـــصدر الـــضجيج

فكان كل الهاربين للتدخين يحولون الشارع إلى جزء من البار)
و لكنها ردت برمي كأسها على الأرض ليتكسر بعنف و هي تصرخ طالبة ان تترك و شأنها .. هدد الجار بإبلاغ الشرطة .. جائت الفتاة العاملة في البار لتهدئة الموقف و طلبت من الفتاة المغادرة .. نظرت إلي بتحدي

- tu m' accompagne ?

-تيجي معايا ؟

كان التوقيت غريباً جداً .. نظرت للداخل لأجد سلام غير موجود على كرسيه .. لم أدري متى رحل و لكنه ربما رحل مع بياتريس .. و كان بيير منشغلا مع اصدقائه في الكلام ..

هززت كتفي و رحلت محاولاً منعها من الوقوع .. لم أتذكر الكثير في الصباح و سلام يوقظني مبتسماً .. غير أنني قمت بتوصيل الفتاة التي لا أذكر إسمها إلى مترل بعض الاشخاص بالقرب من كنيسة سان جرمان و أنني تناولت كأسان او اكثر معهم و بعض الحوارات المملة التي اضطر فيها لقبول قناعات الأخرين عن فن التصوير و نظرياتهم الحمقاء

خاصة و أنني منذ زمن .. لم اعد مصوراً بشكل حقيقي ..لعلي كنت أنتظر ظهور خانة جديدة لمهنتي حتى اعرف نفسي بها .. ارادت الفتاة ان نغادر سويا إلى مترلها في الفجر و لكني اثرت ان أعود للنوم قبل ميعاد المستشفى ..كنت قد اصبحت عجوزا على هذه المغامرات ..

كانت صالة المترل تفوح برائحة القهوة .. و ضوء الاباجورة البرتقالية منهزما امام ضوء النهار ..

لم ينقص المكان سوى قبلة بياتريس الدافئة على وجنتي وهي توقظني .. لم ينقص المكان شئ .. بل زادت عليه بضع أيام، شهور و ثواني ، و كان هذا كافياً ليصبح كياناً آخراً .. يقهر الزمن الأماكن كما يقهر الأشخاص .. نظرة للمكان .. تليها نظرة لوجهي في المرأة .. أدركت أن المترل بدوره ربما لم يكن يعرفني .. على كل حال .. لا بد و انه شارك الشيخ سلام ذكريات اكثر مني..

كان بيير يتناول فطوره و الشيخ سلام على اهبة الإستعداد .. هرعت وأنا أحتسي القهوة الساخنة لأرتدي ملابسي .. أدركت في هذه اللحظة ان بيير يكاد يكون لم ينطق كلمة واحدة معنا منذ وصولي ...

كان دائما صمته و تعامله العادي يشعرني بتأنيب ضمير اكثر مما لو كان تحدث .. بعض الأشياء لا تتغير ..

ركبنا المترو وتوجهنا رأسا للمستشفى ..

- للمرة الاولى ، عيونك مبتلمعش .. شكلك مش بتحب اليومين دول ..

إنحنت بياتريس بجسدها الذي زاده المرض هزالاً .. والتقطت ورقة شجر صفراء يابسة .. ابتسمت ابتسامة خفيفة .. هززت كتفي في صمت .. نظرت للشيخ سلام وبيير اللذان يتحدثان مع احد الأطباء عند مدخل الحديقة ..

- انا مش عايزة اموت هنا .. رائحة الموت اللي حواليه بتخنقني .. و في كل الأحوال .. مفيش اي فايدة من وجودي في المكان .. نفسي نعمل رحلة انا و إنت و سلام و بيير لدوفيل المدينة اللي رحناها في اخر مرة كنت هنا ....اعتقد ان الرحلة دي غيرت حياتنا كلنا ..

- ح نشوف الدكتور ح يقول ايه لبيير عن فكرة الخروج..

- بيير بيتعامل معاك كويس؟

- مبيتعاملش .. بس هو عموما احسن معايا بكتير من مع الشيخ سلام ..

- المسكين .. عمره ما فقد الأمل إننا نرجع لبعض .. بيتهيألي إنه عمره ما وراني حزنه لما سبنا بعض غير علشان لما نرجع لبعض ما يكونش مكسور قدامي ..

لم اكن اشاركها الرأي .. كنت اعتقد انني انا و بيير — بما اننا اجتمعنا في فقد بياتريس — لم نحزن لإدراكنا منذ البدء أننا لم و لن نمتلكها ابداً .. سرحت بخاطري لدقائق لأجد بياتريس قد سبقتني بعدة خطوات و هي تجمع الأوراق الذابلة ..

التفتت إلي فجأة ..

- دور تاني على البنت اللي حكيتلي عليها .. اللي بتولــع السجاير بالكبريت ..العلاقات اللي فيها مرارة بتليــق عليــك اكتر .. بتخلي عينيك تلمع .. و انا كنت دايما باحــب لمعــة عينيك ..

لم تنتظر لأرد عليها و اخذت خطوات ســريعة في اتجــاه الممر .. رأيتها تتحدث مع الشيخ سلام و بيير و الطبيــب .. لسبب ما كنت اتمنى الا يشركها سلام في تفاصــيل مغــامرتي الليلية .. قررت ان اخرج لإنتظــارهم في المقهــى المواجــه للمستشفى ..

"يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضــية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي"

نبهتني الهمهمات الصادرة من الشيخ سلام و هو يتلو القرآن امام قبر بياتريس من شرودي ..و التي تقاطعــت مــع قــراءة الإنجيل مشكلة تناغماً رائعاً ..

لحظت نظرات استهجان من بعض المحيطين .. كنــا نحــن الثلاثة انا و سلام و بيير في حالة من عدم الراحة .. فقــط في العزاء اكتشفنا ان لا احد هناك لنعزيه سوانا نحن .. كان سلام قد ذبل وجهه تماما .. لم يكن له بهائه المعتاد .. خرجنا في عدم

إرتياح على وعد ان نذهب في اليوم التالي وحدنا بعيـــدا عـــن العائلة لنودعها كما نرغب .. احتضنت الشيخ ســـلام عنـــد البوابة .. و بالرغم من مدى شرقية تلك العادة و دلالتها إلا أن بيير إنضم لنا فجأة لنصبح ثلاثة اجساد متعانقين ..

لست أدري لماذا جالت في خاطري جملة من رواية اعشقها:
" حين يموت طفل .. يموت كل اطفال العالم "

بلا شك أنه بالنسبة لي حين تموت بياتريس .. تموت كـــل نساء العالم .. كل نساء العالم ..

توجهت لشقة مهدي مباشرة .. كنت عاجزاً عن دخـــول منزل بياتريس مرة اخـــرى .. لم تعـــد بـــاريس تـــستهويني كالسابق .. لم اغادر غرفتي لعدة ايام إلا لحضور الجنازة ..

في تلك الليلة .. مررت من أمام الاريا و لم تقو قدماي على الدخول .. رأيت إدوارد كعادته يمازح الزبائن في حميمية ..

في اليوم التالي .. وصلت باكراً إلى المقبرة .. فاجأني صوت غناء الشيخ سلام و انا على بعد امتار من شاهد القبر .. كـــان يتلو قصيدة لإبن الفارض .. كان صوته يوازي تماثيل الملائكة على شواهد القبور صفاء ..

و لقد خلوت مع الحبيب و بيننا   سر ارق من النسيم إذا سرى

و اباح طرفي نظرة املتها   فغدوت معروفا و كنت منكرا

فدهشت بين جماله و جلاله   و غدا لسان الحال من مجهرا

توقفت للحظات بعيدا .. لم يكن عندي صـــلاة لأصـــليها على القبر .. و لم أمتلك حكاية لأحكيها لم يكن لدي ســـوى الصمت ..

محظوظون من يمتلكون الكلمات .. و تعساء للأبد مـــن لم يمنحوا مثلي سوى أذنين للإســـتماع و قـــدمين للترحـــال .. فكلاهما لا يقهر الألم ..

قررت أنا و الشيخ سلام ان نسير قليلاً بعد خروجنا ..

وصلنا لمفترق الطرق ما بين طريقي لبيل فيل حيـــث أقـــيم لدى مهدي و بين طريقه لمترل بياتريس .. سألته عما ينتوي .. إبتسم ابتسامته الصافية الأزلية ..

- رحلتي هنا كان ليها معنى واحد بس .. و لمـــا بيمـــوت المعنى .. لازم نكمل رحلتنا الابدية .. بحثا عن معاني جديدة .. مش إنت لوحدك اللي رحال يا اخ اسامة .. انا راجع مصر .. و إنت ؟

اخافتني نبرة الإتمام في سؤاله .. و اخـــافني أكثـــر إني لا أمتلك إجابة .. و ظللت طويلاً لا أمتلكها .. حياتي بحـــضن شرقي اردت ان اطيله .. و ذهب ..

رحل الشيخ سلام عائدا إلى القاهرة .. ووصلتني شـــذرات اخبار عنه .. عاد لعالم الحفلات و الأحداث الثقافية و قد زادته رحلته إلى باريس شهرة .. إلا أنه و كما سمعـــت .. لم يكـــن يغادر قريته إلا نادراً ..عرفت أنه كان قد عرض عليـــه عـــدة مرات المجئ لباريس و رفض العودة بشدة ..

رأيته عدة مرات على شاشة التليفزيون و بـــدا كمـــن زاد عمره قروناً ..

اما انا .. فساعدني مهدي في الحصول على بعض الاعمـــال السريعة التي كالمعتاد ضخت المال إلى جيبي و ضخت بـــاريس عددا من حكايات النساء في دمي .. اعـــادت لي شـــئ مـــن التوازن و لكنها لم تهبني بريق العينين الذي كانـــت بيـــاتريس تتحدث عنه .

و واصلت الذهاب إلى المقابر دوريا محاولا التحدث معهـــا و لكني ابدا لم استطيع ..

يبدو ان الحكايات تأتيك حين لا تفكر فيها و تهرب منـــك حين ترغب فيها ..

إلتقيت عدة مرات ببير وبوالدة بياتريس في المقابر .. التقينا أكثر من مرة لإحياء ذكرياتنا معها ..

إلا اننا اكتشفنا انا وبيير ان ذكريات كل منا الأجمل معهـــا لا بد و ان تجرح الاخر ..

حتى جاء ذلك اليوم الذي تذكرت فيه رغبتها الاخـــيرة في ان نذهب معا في رحلة لتلك المدينة الصغيرة دوفيل التي ذهبنـــا إليها معاً منذ سنوات عديدة .. اقترحت الفكرة على بيير الذي منعته ظروف عرضه المسرحي من المجيء.

قررت القيام برحلة الحج الصغيرة قبل العودة المحتومة للقاهرة

وصلت لمحطة سان لازار التي ودعت منها باريس لمدن عدة و التي لاقيت فيها سلام و بياتريس في ذاك اليوم البعيد ..كانت تلك المحطة تقع في قلب المنطقة الأكثـــر شـــهرة في بـــاريس لتجمعات المحال التجارية الكبيرة كجاليري لافاييت و غيرها و لهذا فكنت عادة ما اتحاشاها .. لم يكن لـــدي منـــها ســـوى ذكريات القطارات و الرحيل ..

دخلت تلك المحطة التي عادة ما ولجتها باحثاً عن مفاجاة أو ذاهباً لمدينة لم أقررها بعد ..

و في هذه المرة .. أعرف إنني لابد و أن أسافر إلى الوراء .. و أن أعود من دوفيل على امل ان اعود منها بقـــصة أخـــيرة أحكيها لبياتريس .. حجزت تذكرتي و إنتظرت ...

في مقهى من مقاهي المحطة .. احتسيت كأس نبيـــذ .. لم يكن به من طعم الوطن سوى ذكرى او مسحة من النوستالجيا المريرة .. جرعته في رشفة واحدة.. اعلن النـــداء الألى بدايـــة الرحلة .. او ربما نهايتها .. لم اعد ادري و لم اعد ابالي ..

وفي القطار ... عاودتني ذكريات تلك الرحلة كما لو كانت بالامس .. دوفيل .. القطار .. الحفلة .. الأيام المخمورة , و وجه بياتريس الذي يحمل بسمة كل نساء العالم..



الفصل التالت

دوفيل



في مكان ما في الزمن

كان البحر يبدو كنقطة واحدة من الزيت الكبيرة الرمادية اللون .. و على بعد عدة أمتار هي مدى الرؤية .. كان حائطاً أبيض يميل للرمادية .. يغلف العالم .. كان نوعاً من المناظر الذي ينتمي لأحد الافلام التاريخية التي يخترق فيها هذا البياض فجأة سفينة ضخمة للفايكنج او ما شابهه ..

تشعر في هذا المكان انك في أخر نقطة في العالم .. في أخر الدنيا .. و لحسن الحظ .. لم أكن اقف هناك وحدي .. على بعد عدة امتار .. كانت بياتريس تقف مرتدية معطفاً احمر اللون و هي تنظر للبحر بسعادة .. بقعة حمراء وسط لوحة ما بين الرمادي و الأبيض الداكن ... و بجانبي كان الشيخ سلام ينظر لها هو أيضاً .. كانت هي سفينة الفايكنج التي إجتازت البياض لتغزو كل منا ..

- *بتحبها ..*

- *أ ..*

- *أخ اسامة .. اعتقد إننا في لحظة لو حد مرتبك فيها .. لازم يكون أنا ..*

و بالرغم من كل حاجة .. انا متأكد إنك بتحب بياتريس و إنها هي كمان بتحبك .. هي مانكرتش ده .. و اللي حصل

ده بره إرادتي انا و هي و إنت .. بياتريس كانـــت كـــشف بالنسبة لي .. عارف .. اوقات بتقابل حد و فجأة في دايـــرة بتكتمل زي ما يكون كل الناس اللي صـــحيت في ســـريرك و إنت مش فاكرهم .. فجأة بقوا همه الـــبني أدم ده .. كـــل مواويل العشق اللي أنشدتها .. فجأة بقت بتدور حواليها ..

حالة مش عارف لو ح تقدر تحسها زيي و لا لأ ..

لم يكن لدي ما أرد به .. إلتفتت بياتريس لنا و نادت علينا لكي نقترب من البحر .. كان هذا جنوناً في ظل الصقيع الذي جعلنا نرتجف .. هززت كتفي رافضاً و إنضم إليهـــا الـــشيخ سلام ..

كان مرآهم هنا في هذه النقطة .. يدفع شيئاً مـــن الراحـــة داخلي .. احسست فجأة بأن إمرأة في جنون و إمتلاء بياتريس للحياة .. يحتاج لعاشق صوفي ينجذب إليهـــا لا إلى عاشـــق مؤقت يتأرجح بين المدن و يعجـــز عـــن أن يعـــشقها كمـــا تعشقه ..

شعرت في هذه اللحظة بقرب خاص من الشيخ ســـلام .. و أن وجوده في حياة بياتريس بشكل ما هو النهاية الطبيعيـــة لوجودي كان كلاً منا جزء من الرحلة ..

هنا في أخر الدنيا .. إكتملت الصورة .. شعرت بإسترخاء فجأة و قررت أن اعود للفندق إنتظاراً لحفلة الليلـــة .. كنـــا

إجتزنا عدداً كبيراً من المحطات المليئة بعدم الراحة مـــن محطـــة قطار سان لازار إلى القطار و وترتيبات امـــاكن الجلـــوس .. ورحلات من الصمت المريب و الحديث المجـــاني لقتـــل هـــذا الصمت .. وكانت خديجة – المسئولة عن الـــشيخ ســـلام – أكثرنا عدم راحة في الموقف بما أنها خارجه تماماً و لهذا ففضلت ما أن وصلنا إلى الفندق أن تتركنا و تتوجه للمركـــز لمتابعـــة تفاصيل الحفل و إختفت منذ تلك اللحظة ..

وقفت في نافذة الفندق متسلياً بتدخين سيجارة ملفوفة على الطريقة المغربية .. و بصري سارحاً في الأفق .. متـــسائلاً إذا كان على الناحية الأخرى من البحر يوجد بلداً اخـــر ام إنـــني فعلاً في آخر الدنيا

لعنت الجغرافيا التي لم تكن ابداً مادتي المفضلة .. و تشاغلت بمشاهدة مبني عتيق يحمل لافتة كازينو.

كنت اعشق المقامرة بجنون وكثيراً ما خـــسرت الكـــثير .. وربحت الكثير فيها .. اذكر تلك المرة الجنونية التي قامرت احد اصدقائي على من سيصطحب اجمل فتاة في الحفلة إلى منزلـــه تلك الليلة و قضيت إحدى اكثر الليـــالي الإيروتيكيـــة دفئـــاً معها .. و إستيقظت دون ان احد أثراً لها .. ممـــا أوقعـــني في ديلمة إن كنت خرجت من المقامرة رابحاً أم خاسراً ..

قررت أنني يجب أن أزور هذا الكازينو تلك الليلة ..

- الكازينو .. إنت عارف إن القصر ده بتاعكوا ؟

لم أشعر بيياتريس التي وجدتها فجأة تقف خلفي و تتأملني بإبتسامتها المعتادة ..

- بتاعنا ؟

- موظف الإستقبال .. قالي لما عرف إنكم من مصر .. إن الكازينو بتاع البلد كان أصلاً قصر مملوك للخديوي إسماعيل .. و إنه كان واحد من حكام بلادكم الترك في القرن ال١٩

- فعلاً ؟ واضح ان الراجل ده كان عنده ذوق .. إنت عارفة إنه هو اللي عمل اول دار اوبرا في مصر ..

هزت كتفها .. و أدركت أنها معلومة مجانية لفتاة من مدينة مليئة بالمسارح كإمتلاء مدننا بدور العبادة ..

- إنت بتكرهني دلوقتي .. مش كده ؟

- متبقيش غبية .. إنت عارفة إني عمري ما ح أكرهك ..

-زي ما كنتي بتقولي .. احلى حاجة في علاقتنا ..إنها عمرها ما ح تنتهي لإنها عمرها ما إبتدت ..

اراهن على أن في مكان ما في تلك اللحظة كانت جان مورو جالسة على كرسيها الهزاز ما بين جول و جيم و على عزف الجيتار تتأرجح و تغني أغنية " الدوامة " **le tourbillon** هذا المشهد الي طالما عشقته .. فقد كان اللحن يغزو أذني .. بشكل مؤرق ..

إقتربت بياتريس مني في خطوات بطيئة .. قبلتني على جبهتي بحنان .. جذبتها لفمي و لم تقاوم .. إستغرقنا في قبلة تحمل برودة المرة الأخيرة .. غادرت الغرفة ..

أخذت محموماً أنظف ملابسي من رماد السيجارة الذي انهمر عليّ دون ان اشعر به ..

في الليل .. غادرنا الحفلة و غناء الشيخ سلام الأسطوري يلاحق أذاننا .. كان بداخلي نشوة أسطورية .. ولجنا احد البارات و إنهمر النبيذ و الغناء يعطي مسحة من الحلم للحظة ..

كانت إحدى تلك الليالي التي تتمنى من الخالق أو من غيره ألا تنتهي .. كئووس عديدة من رحيق الوطن .. إنغمسنا في رقص أسطوري بعد أن خلا المكان إلا مننا .. تذكرت تلك الليلة الجنونية التي ولجنا فيها سويا و نحن في قمة الثمالة لاحد ملاهي الإستربتيز بل و طلبنا رقصة خاصة من احدى الفتيات على مائدتنا لبياتريس .. كم كان الموجودين يستغربون وجودنا معاً و تصرفاتنا و كم ضحكنا كالمجانين و الفتاة ترقص رقصتها الإغوائية لبياتريس .. كان احد تلك الايام المخمورة..

كانت بياتريس كإلهة صغيرة السن لم تحمل بعد هموم العالم تدور في رقص أشبه براقصي التنورة وكان سلام يشاركها الدوران كقمر يدور في فلك هذا الكوكب ..

كنا نرقص حتى بعد توقف الموسيقى التي ربما كانت قد توقفت منذ زمن ..

شيء ما داخلي كان يرفض أن تنتهي تلك اللحظة ..

خرجنا من البار في الفجر .. ركضت بياتريس كالمجنونة نحو البحر و هي تمسك زجاجة النبيذ الاخيرة التي إقتنصناها من الداخل .. ركضنا ورائها .. لاهثين و انا ألعنها و اتسائل من أين جائت بتلك الطاقة ..

كانت تضحك هستيريا و هي تنعتنا بالمتكاسلين ..

وصلنا إلى شاطئ البحر المغطى بزرقة الفجر .. جلسنا نلهث على الشاطئ و نحن منغمسين في الضحك .. و للمرة الاولى أخرجت كاميرتي التي كنت دائماً ما أنساها في حضرة بياتريس .. ضبطت الكادرو التوقيت .. ثبتها و اقتربت لنأخذ نحن الثلاثة صورة لم ادرك حتى هذه اللحظة أين فقدتها ..

بياتريس ضاحكة في أحضان الشيخ سلام .. و انا ممسكاً بزجاجة البوردو اجرع منها أخر قطرة ..

البحر يزحف بعيدا عنا بفعل الجذر أو و هو يلعن جنوننا الثمل بالحياة و الصخب الذي ايقظ امواجه النائمة..

و سماء اخر الدنيا.. ترتج مع ضحكات بياتريس ..

النهاية